# خورخي فرانكو

# روساريو

ترجمة :
مارك جمال

رواية

t.me/qurssan

روساريو - رواية
تأليف: خورخي فرانكو
ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

Rosario Tijeras
Jorge Franco

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 02 - 3
الطبعة الأولى: 2020

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© Jorge Franco, 1999.
first published by Plaza & Janes Editores, S.A.
Arabic translation rights arranged with Casanovas & Lynch Agencia Literaria

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرين الخطية.

t.me/qurssan

خورخي فرانكو

# روساريو

رواية

ترجمها عن الإسبانية:
مارك جمال

t.me/qurssan

t.me/qurssan

## صَلاةٌ إلى الدّيّان

«لو أن لهم عيوناً فعسى ألّا تراني،
لو أن لهم أياديَ فعسى ألّا تمسك بي،
لو أن لهم أقداماً فعسى ألّا تلحق بي،
لا تأذن لهم بأن يباغتوني من الخلف،
ولا تأذن بموتي موتاً عنيفاً،
ولا تأذن بسفك دمي،
إنك، وأنت العالِم بكلّ شيء،
تعلم بآثامي،
وكذا تعلم بإيماني،
فلا تتخلَّ عني،
آمين».



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 1

تلقّت روساريو رصاصةً من فوهة المُسدّس الملصقة بجسدها بينما هي تتلقّى قبلةً، فاختلط عليها ألمُ الحبّ وألم الموت. غير أنها قطعَت الشكّ باليقين حين رفعَت شفتَيها ورأت المُسدّس.

«أحسستُ بتيّار جارف يسري عَبْر جسدي كله، ظننتُه أثر القبلة...»، قالَت لي وهي تغيب عن الوعي، في الطريق إلى المستشفى. فقلتُ: «لا تتكلّمي أكثر مما فعلتِ، روساريو».

أخذَت تشدّ على يدي. ثم طلبَت مني ألّا أتركها تموت.

– «لا أريد أن أموت، لا أريد».

رحتُ أبثّ في نفسها الأمل، بَيْد أن الأمارات المرتسمة على وجهي لم تخدعها. ومع أنها كانت تحتضر، فقد بدَت رائعةً، بجمالها السماوي المُميت، بينما راحت تنزف وهي تُساق إلى غرفة العمليات. فرّقَت بيني وبينها سرعةُ السرير النقّال، وذبذبات الباب، والأوامر الصارمة التي أصدرَتها المُمرّضة. تمكّنتُ من سماعها وهي تقول: «أبلِغْ ماما».

كما لو كنتُ أعلم أين تسكن أمها! ما كان أحد يعلم، ولا حتى إميليو، الذي عرفها جيداً، وشاء حسنُ حظّه أن يفوز بها. اتصلتُ به لأحكي له ما جرى. فخيّم عليه صمت مطبق، حتى إني اضطررت إلى تكرار ما لم



t.me/qurssan

أصدّقه أنا نفسي، ولكنّي من فرط ما أخبرتُه بما حدث لأخرجه عن صمته، عدتُ إلى أرض الواقع وأدركتُ أن روساريو تلفظ أنفاسها الأخيرة.

«إنها تضيع من بين أيدينا يا فتى». قلتُ له وكأن روساريو من نصيب كلٍّ منا، أو كأنها كانت من نصيب كلٍّ منا ذات مرة. لعلّها زلّة لسان، أو رغبةٌ دائمة في خاطري.

- «روساريو».

لا أملُّ تكرار اسمها والفجر ينبلج، أترقّب وصول إميليو، الذي لن يأتي بطبيعة الحال، أترقّب أن يخرج أحدهم من غرفة العمليات ويقول شيئاً. يطلع الفجر أبطأ من أيّ وقت مضى، وأرى الأنوار تنطفئ واحداً تلو الآخر في الحيّ العلوي الذي نزلَت منه روساريو ذات مرة.

- «انظرْ جيّداً إلى حيث أُشير. هناك، في الأعلى، فوق خيط الأنوار الصفر، كان بيتي في موضعٍ أعلى قليلاً. لا بدّ أن دونيا روبي هناك، تصلّي من أجلي».

لم أرَ شيئاً، وحدها إصبع روساريو الممدودة في اتجاه الجزء العلوي من الجبل، إصبعها المُزيّنة بخاتم لم يخطر لها على بالٍ أن تملك مثله قطّ، وذراعها الخلاسية، ورائحتها، رائحة روساريو، وكتفَيْها العاريتَيْن كما هو دأبها في غالب الأحوال، وقميصها الضيّق جدّاً، ونهدَيْها المنتصبَيْن كإصبعها التي أشارت بها. ها هي ذي الآن تموت من فرط ما راوغَت الموت.

«لا أحد يستطيع أن يقتلني، فأنا كالعشبة الضارّة»، قالت ذات يوم.

ما دام لم يخرج أحد، فهي ما زالت على قيد الحياة. سألتُ عدّة مرّات، ولكن أحداً لم يفسّر لي ما يجري. لم نسجّل بياناتها في المستشفى، إذ لم نجد مُتّسعاً من الوقت.



t.me/qurssan

- «الفتاة، المصابة بالرصاص».

فأجابتني موظّفة الاستعلامات: «أغلبهم يصلون إلى هنا مصابين بالرصاص».

كُنّا نخالها منيعةً على الرصاص، خالدةً، وإن عاشَت محاطةً بالموتى على الدوام. داهمني يقين بأن الكلّ يحين أجله يوماً، وإن تعزّيتُ بكلام إميليو الذي كان يقول عنها إنّ تحت بشرتها سترة واقية من الرصاص.

- «وتحت ثيابها؟».

فأجابني إميليو بمزحة رديئة: «لحم بضّ. عليك أن تكتفي بالنظر إليه».

أُعجِبنا بروساريو جميعاً، ولكن إميليو هو الوحيد الذي تحلّى بالجرأة الكافية، فلا بدّ من الاعتراف بأن الأمر لم يكُن رهناً بالحظّ وحسب، لأن الارتباط بروساريو كان يستلزم الجرأة أيضاً. غير أن الجرأة ما كانت تنفعني بشيء، حتى لو تحلّيتُ بها، لأني وصلت متأخّراً. كان إميليو هو الذي فاز بها حقّاً، هو الذي نازع مالكها السابق عليها، هو الذي خاطر بحياته، الوحيد الذي عرض عليها أن تنضمّ إلينا.

«سأقتله أولاً، ثم أقتلكِ أنتِ أيضاً»، تذكّرتُ أن فيرني قد توعّدها بهذا الكلام. أذكر ذلك لأني سألتُ روساريو: «ماذا قال لكِ فارلي؟».

- «فيرني».

- «أجل، فيرني».

فأوضحَت روساريو: «قال إنه سيقتل إميليو أولاً، ثم يقتلني أنا أيضاً».

اتصلتُ بإميليو ثانيةً. لم أسأله عن السبب الذي منعه من الحضور ليكون برفقتي، لعلّه يملك من الأسباب ما يمنعه من ذلك. قال إنه ما زال مستيقظاً هو الآخر، وإنه سيمرّ في وقت لاحق بالتأكيد.



t.me/qurssan

- «لم أتصل بك لهذا، بل لأطلب منك رقم هاتف أمّ روساريو».

سألني إميليو: «هل عرفتَ شيئاً؟».

- «لا شيء. ما زالوا في الداخل».

- «ولكن، ماذا يقولون؟»

- «لا شيء، لا يقولون شيئاً».

- «وماذا عنها؟ هل طلبَت منك أن تبلغ أمها؟».

- «ذلك ما قالت قبل أن يأخذوها».

فقال إميليو: «غريب، فهما متخاصمتان، على حدّ علمي».

- «لا غرابة في ذلك، إميليو، فالأمر في غاية الجدية الآن».

لطالما سعَت روساريو جاهدة لتنسى كل ما تركَته وراءها، ولكن ماضيها كان كالبيت المتدحرج، رافقها حتى غرفة العمليات وأفسح لنفسه مكاناً بجوارها، وسط الشاشات وأنابيب الأوكسجين، حيث أُودِعَت روساريو، ترقّباً لعودتها إلى الحياة.

- «ماذا قلتَ إنها كانت تُدعَى؟».

فصوّبتُ قول المُمرّضة: «ما زالت تُدعَى».

- «ماذا تُدعَى إذاً؟»

فنطق صوتي باسمها في راحة: «روساريو».

- «وما اسم العائلة؟».

«روساريو المقصّ». لا بدّ أن هذا هو الاسم الكامل الذي أدليتُ به، فهو الاسم الذي عرفتُها به. ولكن المقصّ لم يكُن اسمها، وإنما بالأحرى حكايتها. لقد بدّل الناسُ اسم عائلتها، رغماً عنها، مما سبّب لها كدراً شديداً، ولكن ما لم تدركه قطّ هو المعروف العظيم الذي قدّمه لها أهل



t.me/qurssan

الحيّ، إذ خفّفوا عن كاهلها ذلك العبء الذي يُوصَم به اللقطاء ممّن يحملون اسم عائلة الأم من دون عائلة الأب، وأطلقوا عليها بدلاً منه اسماً مستعاراً، في بلد حافل باللقطاء. ولكنها ألِفَت الاسم لاحقاً، بل وراقت لها هويّتها الجديدة في خاتمة المطاف. يومَ تعرّفتُ بها قالت: «مُجرّد اسمي يبثّ الرعب في النفوس. يروق لي هذا».

بدا جليّاً أن الاسم يروقها، لأنها كانت تنطقه مُشدّدة على كلّ مقطع من مقاطعه، ثم تختمه بابتسامة، وكأن أسنانها البيض اسم عائلتها الثاني.

«المقصّ»، قلتُ للمُمرّضة.

- «المقصّ؟».

فأعدتُ الاسم عليها وأنا أحرّك اثنتين من أصابعي مُقلّداً حركة المقصّ: «أجل، المقصّ. كذلك الذي يقصّ».

- «روساريو المقصّ».

دوّنَت الاسم بعد أن ندّت عنها ضحكة مقتضبة بلهاء.

ألفنا اسمها إلى حدٍّ جعلنا لا نفكّر يوماً أن لها اسماً سواه. في عتمة الأروقة أشعر بعزلة روساريو الباعثة على الضيق في هذا العالَم، وهي التي لا تملك هوية تستند إليها، وتختلف عنا كل الاختلاف، نحن القادرين على التنقيب عن ماضينا حتى آخر أرجاء العالَم، بأسماء عائلاتنا التي ترسم على الوجوه أمارات القبول، بل والغفران عن الجرائم التي اقترفناها. أما روساريو، فلم تغفر لها الحياة شيئاً، ولذا دافعَت عن نفسها بضراوة، وأحاطت نفسها بسياج من الرصاص والمقصّات، من الجنس والعقاب، من المتعة والألم. خدَعَنا جسدُها، فخلنا أننا قد نجد فيه لذّات المتعة التي إليها كان يدعونا قوامها المُطعّم بالقرفة، كانت نفوسنا تهفو إلى تذوّقها، والإحساس برقّة بشرتها النقية. لطالما اشتهينا أن نتغلغل داخل روساريو.



t.me/qurssan

لم يحكِ لنا إميليو عن ذلك يوماً. كان في موقع يسمح له بأن يحكي، لأنه فاز بها كثيراً، طويلاً، ليالي طوالاً، قضيتُها في الاستماع إلى آهاتهما الآتية من الحجرة الأخرى، كانا يصرخان على مدى ساعات بلا نهاية، في نشوتهما المُطوّلة، وأنا في الحجرة المجاورة، أُضرِم ذكرى ليلتي الوحيدة معها، تلك الليلة الهوجاء حين وقعتُ في شراكها، الليلة الوحيدة التي قضيتُها مع روساريو وأنا أموت عشقاً.

«في أيّ ساعةٍ جاؤوا بها؟»، سألتني المُمرّضة ممسكةً بدفتر.

– «لا أدري».

– «في أيّ ساعة جاؤوا بها تقريباً؟».

– «في الرابعة تقريباً. كم الساعة الآن؟».

التفتَت المُمرّضة لتنظر إلى ساعة حائط خلفها، ثم دوّنَت: «الرابعة والنصف».

يخيّم الصمت على عنابر المستشفى، فتكسره صرخةٌ تدوّي من آنٍ إلى آخر. أضاعف من تركيزي لعلّني أسمع إحدى صرخات روساريو. ولكن صرخةً واحدة لم تتكرّر، إنها الصرخات الأخيرة لأولئك الذين لن تقع أبصارهم على النهار الجديد. لم يكُن أيٌّ من تلك الأصوات صوتها. يغمرني الأمل مُفكّراً أن روساريو قد تجاوزَت قصصاً كثيرة كهذه، قصصاً لم أكُن جزءاً منها. بل إنها هي التي كانت تحكيها لي، كما نحكي فيلم «أكشن» يروق لنا، والفارق أنها كانت هي بطلة قصصها الدامية، بلحمها ودمها. ولكن بين القصة المحكيّة والقصة المَعيشة مدىً بعيداً، وفي القصة التي كنتُ منها جزءاً، مُنيَت روساريو بالخسارة. لم يكُن سماع ما تحكيه عن كميات الدماء التي سفكَتها يشبه رؤيتها مُمدّدةً على الأرض وجسدها يكاد يجفّ من شدّة النزيف.



t.me/qurssan

«أنا لستُ من تظنّني»، قالَت لي ذات يوم، في بادئ الأمر.

- «ومن تكونين إذاً؟».

فقالت بعينَيْن زجاجيّتَيْن: «إنها قصة طويلة يا صديقي، ولكنّك ستعرفها».

ومع أننا كثيراً ما تحدّثنا عن كلّ شيء، أعتقد أني لم أعرف من القصة إلّا شطراً. كنتُ أودّ لو عرفتها كاملة. ولكن ما حكَته لي وما رأيتُه وما استطعتُ التحقّق منه يكفيني لأدرك أن الحياة ليست ما يحملوننا على تصديقه، ولكنّها تستحقّ أن تُعاش لو ضمنّا اللقاء بامرأة مثل روساريو المقصّ، في لحظة ما.

«من أين جاء لقب المقصّ؟»، سألتُها ذات ليلة، وكأس الخمر في يدي. فأجابَتني شاخصةً بعينَيْها إلى الكأس التي أفرغَتها بعد ذلك في جوفها: «من رجلٍ استأصلتُ خصيتَيْه».

فقدتُ الرغبة في سؤالها عن المزيد من الأمور، على الأقل في تلك المرة، إذ كان الفضول يداهمني، فأمطرها بوابلٍ من الأسئلة في كلّ لحظة. أما هي فتجيب عن بعضها، وتطلب أن نترك بعضها إلى وقت لاحق. ومع ذلك، فلقد أجابت عن جميع الأسئلة، كلٌّ في وقته، بل إنها كانت تتصل بي في بيتي أحياناً عند منتصف الليل وتجيب عن بعض الأسئلة المُعلّقة. أجابت عنها جميعاً إلّا واحداً، مع أني طرحتُه عليها مراراً.

- «روساريو، هل وقعتِ في الحبّ يوماً؟».

كانت تستغرق في التفكير، شاخصةً بعينَيْها إلى موضع بعيد، فلا تجيبني سوى بابتسامة هي الأجمل، ابتسامة كانت تُخرسني، وتتركني عاجزاً عن طرح أي سؤال آخر. وفي بعض الأحيان كانت تجيبني بقولها: «أيّ أسئلة حمقاء!».



t.me/qurssan

يسرع الأطباء والمُمرّضات دخولاً وخروجاً عَبْر الباب الذي سيقَت روساريو من خلاله، يمضون وهم يدفعون أسِرّة نقّالة رقد عليها المزيد من المحتضرين، أو يتحدّثون في ما بينهم بأصواتٍ خافتة ووجوهٍ واجمة. كانوا يدخلون بثياب نظيفة، ويخرجون بثياب لوّثها رذاذ الدماء. أتخيّل أيّها دم روساريو، لا بدّ أنه مختلف عن دماء الآخرين، لا بدّ أنه دم حار جدّاً، مترَع بالسمّ الزعاف، يجري بسرعة ألف ميل في الساعة. فروساريو صُنِعَت من مادة أخرى، ولم يكُن للرّبّ في خلقها يد. ذات يوم قالت في معرض الحديث عن الرّب: «علاقتي بالرّب سيّئة».

- «ألا تؤمنين به؟».

- «كلّا. لا أؤمن بالرجال كثيراً».

من صفات روساريو أنها كانت قليلة الضحك. ما كانت تذهب إلى أبعد من الابتسام، ونادراً ما سمعناها تقهقه أو تصدر أيّ صوت من شأنه التعبير عن مشاعرها. كانت تسمع مزحة أو تواجه موقفاً في منتهى الغرابة، فتظلّ غير آبهة. ما كانت تثيرها ولا حتى دغدغات إميليو الرقيقة وهو يحاول إضحاكها، ولا القبلات المطبوعة على سرّتها، ولا الأظفار التي تعبث تحت إبطَيْها، ولا اللسان الذي يسري على بشرتها وصولاً إلى أخمص قدمَيْها. على الأكثر، كانت تنفرج شفتاها عن ابتسامة، من تلك الابتسامات التي تنشر النور في قلب العتمة.

- «ربّاه، روساريو، كم عدد أسنانك؟».

أما الشيء الآخر الذي لم نعرفه بشأنها قطّ فهو عمرها. حين تعرّفنا بها، حين تعرّف بها إميليو، كانت في الثامنة عشرة من العمر، رأيتُها لأول مرة بعد أشهر قلائل، شهرَيْن أو ثلاثة أشهر، فأخبرَتني بأنها في العشرين من العمر. بعد ذاك سمعناها تقول إنها في الثانية والعشرين، ثم الخامسة



t.me/qurssan

والعشرين، ثم الثامنة عشرة مرة أخرى، وهكذا كانت تمضي وقتها وهي تبدّل عمرها كما تبدّل ثيابها وعشّاقها.

- «روساريو، كم عمركِ؟».

- «كم تظنّ عمري؟».

- «قرابة واحدٍ وعشرين عاماً».

- «صحيح».

والحق أنها كانت تبدو في كلّ الأعمار التي تدّعيها كاذبة. أحياناً كانت تبدو طفلةً، أصغر كثيراً مما تزعم عادةً، مُجرّد مراهقة. وفي أحيان أخرى كانت تبدو امرأة ناضجة، امرأة تبلغ من العمر أكثر كثيراً من سنوات عمرها التي تنوف على العشرين، وتملك من الخبرة ما يفوق خبراتنا جميعاً. كانت روساريو تبدو أكثر أنوثةً وفتكاً وهي تطارح الغرام.

ذات مرة رأيتُها عجوزاً، طاعنة، خلال تلك الأيام التي أمضَتها في معاقرة الشراب وتعاطي البازوكو(*)، فبدَت جلداً على عظم، يابسةً، منكمشةً على نفسها، متعبةً وكأنها تحمل على عاتقها سنوات العالَم كافة. اصطحبَت معها إميليو في تلك الرحلة أيضاً، فكاد المسكين يضيع. ذلك أنه غرق بقدر ما غرقَت هي الأخرى، فلم يتمكّنا من الخروج حتى انحدرا إلى القاع. في تلك الأيام قتلَت روساريو أحدهم، لا طعناً بالمقص، وإنما رمياً بالرصاص. كانت مُسلّحة، شبه مجنونة، تستبدّ بها الهواجس، ويلاحقها الشعور بالذنب، فلاذ كلٌّ من إميليو وروساريو ببيت صغير في الجبل، ولم يتزوّدا بغير الكحول والمُخدّرات.

كان أول ما تمكّنتُ من السؤال عنه: «ماذا جرى لكما، إميليو؟».

---

(*) البازوكو: مزيج من الكوكايين والهيروين شاع تعاطيه في كولومبيا خلال تلك الحقبة. (المترجم).



t.me/qurssan

أجابني: «قتلنا رجلاً».

فقالت هي بفمٍ جافّ ولسانٍ ثقيل: «"قتلنا" تدلّ على تورّط الكثيرين، أنا التي قتلتُه».

فأردف إميليو: «سيّان، فكلانا يتحمّل ما يفعله الواحد منا. أنا وروساريو قتلنا رجلاً».

سألتُهما ساخطاً: «ربّاه! من قتلتما؟».

فقال إميليو: «لا أدري».

ثم قالت روساريو: «ولا أنا».

زد على ذلك أننا لم نعرف لقتلاها عدداً. علمنا أنها قد وضعَت بعض الأسماء على قائمتها قبل أن نتعرّف بها، ثم «أرقدَتهم»، على حد قولها، الواحد تلو الآخر، في الفترة التي أمضَتها معنا. ولكني لا أدري ما إن كانت قد «أرقدَت» ضحية أخرى، في واحدة من قبلاتها الحارة، خلال الأعوام الثلاثة الماضية، أي منذ افترقنا عنها حتى الليلة الفائتة، عندما حملتُها وهي تحتضر.

- «هل رأيتَ الشخص الذي أطلق عليها النار؟».

- «كان المكان معتماً للغاية».

عاودَت المُمرّضة سؤالي: «هل أُلقِي القبض عليه؟».

فأجبتُها: «كلّا. ما كاد يقبّلها حتى انطلق راكضاً».

كانت روساريو كلما قتلَت أحدهم زاد وزنها. إذ كانت تختلي بنفسها وتعكف على تناول الطعام، يملؤها الخوف، وتمتنع عن الخروج طوال أسابيع، وتطلب الحلوى، وتلتهم كلّ ما يقع في طريقها. كانت تُشاهَد خارج البيت أحياناً، ولكنها لا تلبث أن تعود مُحمّلةً بعبوات الطعام. وعلى الرغم من امتناعها عن الحديث، كان الجميع يكتشف أنها قد زجَّت بنفسها



t.me/qurssan

في ورطة بمُجرّد رؤيتها بدينة. كانت تُرينا الخطوط على بطنها وساقَيْها: «هذه الخطوط علامات على تمدّد البشرة، لأن وزني قد زاد مرات كثيرة».

بعد مضيّ ما يقرب من ثلاثة أشهر أو أربعة على الجريمة، كانت تكفّ عن تناول الطعام وتبدأ في خسارة الوزن، فتخزّن السترات التي تداري بها الأرطال الزائدة، وتعود إلى سراويلها الجينز الضيقة، وأقمصتها التي تكشف عن بطنها، وكتفَيْها العاريتَيْن. كانت تعود رائعة الجمال كما يذكرها المرء دوماً.

في تلك الليلة وجدتُها نحيفة، ما ذكّرني بروساريو الهادئة، المعافاة، البعيدة عن اضطراباتها القديمة. لكني ما كدتُ أراها وقد خرّت واهنة، حتى أفقت من وهمي الذي لم يطُل أكثر من ثوانٍ معدودة.

«منذ طفولتي وأنا جامحة جدّاً. كنتُ أبثّ الرعب في نفوس المُعلّمات. ذات مرة جرحتُ وجه إحداهن»، كانت تقول في زهوّ.

- «وماذا جرى لك؟».

- «طُرِدتُ من المدرسة. وقيل لي إني سوف أُرسَل إلى السجن، إلى سجن مُخصّص للبنات الصغيرات».

- «وكلّ هذه الجلبة من أجل جرحٍ واحد؟».

فأوضحَت لي روساريو: «جرحٌ بحدّ المقصّ».

كانت المقصّات هي الأداة التي عايشَتها روساريو كل يوم: لأن أمها كانت خيّاطة. ولذا فقد درجَت روساريو على رؤية مقصّيْن أو ثلاثة في بيتها على الدوام. كانت ترى أمّها التي لم يقتصر استخدامها للمقصّات على القماش فحُسب، بل كانت تستخدمها أيضاً في قصّ الشعر، وتقطيع الدجاج، واللحم، وتقليم الأظفار، وكثيراً ما كانت تستعين بها كي تتوعّد زوجها. أقبل والدا روساريو من الريف بحثاً عما يبحث عنه الجميع،



t.me/qurssan

شأنهم في ذلك شأن معظم أهل الحيّ، وحين لم يجدا شيئاً، استقرّ بهما المقام في الجزء العلوي من المدينة حيث عاشا يتدبّران حالهما. فعملَت أمها خادمة، وأقامت لدى مستخدميها الذين سمحوا لها بعطلة أسبوعية يوم الأحد لقضاء بعض الوقت مع أبنائها وزيارة زوجها. كانت مدمنة على مشاهدة المسلسلات، ومن فرط ما شاهدَتها في بيت مستخدميها طُرِدَت منه. ولكن الحظ ابتسم لها مرة أخرى، فحصلَت على عمل نهاري سمح لها بالنوم في بيتها ومشاهدة المسلسلات مُمدّدة على فراشها. ومن مسلسلات «إسمِرالدا» و«توپاسيو» و«ماريا ببساطة» تعلّمت أنها قد تودّع الفقر إن التحقَت بدروس الحياكة، ولكنّ الصعوبة حينذاك كانت تكمن في العثور على مقعد شاغر في صفّ الحياكة خلال العطلات الأسبوعية، ذلك أن الحلم نفسه كان يراود كلّ خادمات المدينة. لكن الحياكة لم تسمح لها بأن تودّع الفقر، لا هي ولا غيرها، فلم يتمكّن من الإثراء سوى مالكات مدارس الحياكة وتفصيل الثياب.

«ذلك الرجل الذي يعيش مع ماما، ليس هو بابا»، أوضحَت لنا روساريو.

سألتُها أنا وإميليو: «وأين أبوك؟».

فقالت روساريو مُشدّدة على كلامها: «لا أملك أدنى فكرةٍ لعينة».

كان إميليو قد حذّرني من الحديث عن أبيها. وعلى الرغم من ذلك، فهي التي ذكرَته يومذاك. كانت كؤوس الشراب تثير في نفسها الحنين، وأعتقد أنها تأثّرت حين سمعَتنا نذكر آباءنا. فبدأت حديثها قائلةً: «لا بدّ أنه شيء في منتهى الغرابة أن يكون لك أب».

ثم أفضَت لنا بشذراتٍ من قصتها. فحكت أن أباها قد هجرهن بعد مولدها.



t.me/qurssan

- «أو هكذا تزعم دونيا روبي على الأقل. ولكني لا أصدّق مما تقول حرفاً، بالطبع».

دونيا روبي هي أمها. ولكن تلك التي لا يمكن تصديق حرف مما تقول هي روساريو. كانت لها القدرة على الإقناع من دون لفٍّ ولا دوران، ولكنها متى ثارت الشكوك حول «حقيقتها»، لاذت بالبكاء مُصدّقةً على أكذوبتها بدموع الشفقة.

قال لي إميليو: «لقد ارتبطتُ بامرأة لا أعرف عنها أيّ شيء، لا أعرف عنها أيّ شيء على الإطلاق. لا أعرف أين تعيش، ولا من هي أمها، إن كان لها إخوة، لا أعرف أي شيء عن أبيها، ولا عما تفعله، ولا حتى كم تبلغ من العمر، لأنها أخبرتك بشيء يختلف عما أخبرَتني به».

- «إذاً، فلماذا أنت معها؟».

- «حريٌّ بك أن تسألها لماذا هي معي».

كانت لروساريو القدرة على أن تُفقِد أيّ شخص عقله، وإن لم أفقد عقلي فذلك لأنها لم تسمح لي بذلك، ولكن إميليو... في البدء كنتُ أحسده، بل وأشعر بالغيظ لأنه حسن الحظ، كانت له القدرة على الفوز بأفضل النساء، وأجملهن، أما أنا فتكون من نصيبي صديقاتهن، الأقل حظّاً من اللطف، والجمال. فبجوار كلّ امرأة جميلة، أخرى قبيحة، في معظم الأحوال. ولكني كنتُ أنتظر بهدوء مع فتاتي القبيحة، علماً مني أن مغامراته لا تطول كثيراً، حتى أبدّلها متى بدّل فتاته هو أيضاً، في انتظار أن تكون من نصيبي أخرى أفضل من سابقتها في تلك المرة. ولكن مع روساريو، اختلف الأمر. فلا إميليو أراد تبديلها، ولا أنا أردتُ مواعدة أيٍّ من صديقاتها: كنتُ معجباً بروساريو أنا الآخر. وإن كان عليّ الاعتراف بأني فقتُ إميليو خوفاً، فالأمر مع روساريو ليس رهناً بالإعجاب ولا



t.me/qurssan

الحب ولا الحظ، بل إن الأمر معها رهن بالجرأة. كان على الواحد أن يتحلّى بقلبٍ من حديد للارتباط بروساريو المقصّ. كُنّا نقول لإميليو: «تلك امرأة لا يلعب برأسها أحد».

- «هذا ما يروقني فيها».

فكُنّا نصرّ: «كانت ترافق أشخاصاً في غاية الشدّة، كما تعرف».

- «ولكنّها الآن ترافقني أنا. وهذا ما يهمّ».

كانت مُتورّطة مع أولئك الذين زُجّ بهم الآن في السجن، مع أشد الأشداء، أولئك الذين تعرّضوا للملاحقة الأمنية طويلاً، وعُرِضَت المكافآت من أجل الإبلاغ عنهم، مع أولئك الذين سلّموا أنفسهم ثم ولّوا هاربين، مع الكثيرين من أولئك الذين يرقدون الآن تحت التراب. هم الذين أنزلوها من حيّها، وعرّفوها على الأشياء الجميلة التي تصنعها النقود، وكيف يعيش الأثرياء، وكيف يحصل المرء على أي شيء يريد، بلا استثناء، لأن كل شيء يمكن الحصول عليه، إن أراد المرء. جاؤوا بها إلينا، قرّبوها منا، عرضوها علينا، وكأنهم يقولون لنا: «انظروا أيها الحمقى، فنحن أيضاً نملك نساء جميلات، أكثر إثارة من نسائكم». فتركَتهم يستعرضونها، وهي التي لم تكُن بالكسولة ولا البلهاء، بل كانت تعرف من نحن، الموسرون، أولاد الناس، فراق لها الأمر وألقَت بالطعم إلى إميليو، الذي ابتلعه كاملاً من دون حتى أن يمضغه.

كان إميليو يردّد، بين قلق وسعادة: «إن تلك المرأة تدفعني إلى الجنون». فأقول له، بين قلق وغيرة: «إن تلك المرأة عيار ناري».

كنتُ وإياه على حق. لأن روساريو امرأة من هاتيك النساء اللاتي هنّ مزيج من السمّ والترياق. تبرئ من تشاء، وتقتل من تشاء.



t.me/qurssan

# 2

منذ عرفَت روساريو الحياةَ لم تكفّ عن الاشتباك معها، فكانت تنتصر روساريو حيناً، وتنتصر غريمتها حيناً، وتنتهي الجولة بالتعادل حيناً. ولكن، لو وضع المرء رهانه، لاستطاع أن يرى الخاتمة وهو مغمض العينَيْن: فلسوف تُمنى روساريو بالهزيمة في تلك المعركة. حينئذٍ، من المُؤكّد أنها كانت ستقول إن الحياة تنتصر على الجميع، وتقتلنا بطريقة أو بأخرى في خاتمة المطاف، كما قالت لي في كل مرة. أما أنا، فمن المُؤكّد أني كنتُ سأُضطَرّ إلى موافقتها، والزعم بأنها على حق، ولكن شتّان بين خسارة المعركة بفارق النقاط، وخسارتها بالضربة القاضية.

كلّما تعرّف المرء بالجنس مُبكّراً، زاد احتمال إخفاقه في الحياة. ولذا أصرّ على القول إن روساريو وُلِدَت خاسرة، لأنها اغتُصِبَت قبل أن تفتح عينَيْها على الدنيا، وهي في الثامنة، في عمر لا يعرف الواحدُ فيه ما نفع تلك الأجزاء من الجسد. لم تكن تعرف أنها قد تُجرَح في ذلك الموضع الذي طُلِب منها في المدرسة أن تنظّفه بالصابون كل يوم. حتى كانت ليلة، جاء فيها واحد من الكثيرين الذين عاشروا أمها، فكمّم فاها، واعتلى جسدها، فاتحاً ساقَيْها الصغيرتَيْن، وهناك على وجه التحديد، حيث يكون الألم



t.me/qurssan

على أشدّه، أولج فيها أول ألم تحسّه روساريو في حياتها. تذكّرَت غاضبةً: «ثمانية أعوام لم تكتمل، لن أنسى ما حييت».

يبدو أنها لم تكُن الليلة الوحيدة، إذ راقَت له فعلته الخسيسة. وطبقاً لما حكَت، ظلَّ يلاحق روساريو حتى بعد أن بدّلَت به دونيا روبي رجلاً آخر، لاحقها في البيت، والمدرسة، وموقف الأتوبيس، حتى لم تقوَ على تحمّل المزيد، فأفضَت بكلّ شيء لأخيها، الوحيد الذي يبدو أنه أحبّها بحقّ.

قالت روساريو: «تكفّل چونيفي بكلّ شيء في صمت. أخبرني أحد أصدقائه بما جرى بعد مقتله».

- «وماذا فعلوا بذلك الشخص؟».

- «ذلك الشخص... جرّدوه من شيئه لئلّا يستمرّ في العبث به».

ومع أنهم جرّدوه من سلاحه الخبيث، فلم يزُل عن روساريو الألم قطّ، وإنما بالأحرى انتقل إلى مكان آخر، وصعد إلى روحها. كرّرَت روساريو: «ثمانية أعوام لم تكتمل، يا للخسّة».

لم ترغب دونيا روبي في تصديق القصة، حين أخبرها چونيفي وهو في ثورة من الغضب. كانت مصابة بهوس الدفاع عن أولئك الرجال الذين ما عادوا معها، ومهاجمة ذلك الذي حان دوره في معاشرتها. إنه ذلك الهوس المعهود الذي يحمل المرأة على حبّ من ليس لها من الرجال.

قالت دونيا روبي: «إنها حكايات اختلقَتها الصغيرة، فلقد أصبحَت واسعة الخيال».

فأجابها چونيفي وهو يستشيط غضباً: «بل إنكِ أنتِ الواسعة، وأنا لا أقصد بكلامي خيالكِ».

كان يحبّ روساريو لأنها أخته الوحيدة بحقّ، «من أبٍ واحد، وأمّ واحدة»، مثلما كانت تؤكّد أمّهما. الشيء الذي بدا لهما غريباً هو الفارق



t.me/qurssan

العمري الذي يُقدّر بأعوام طوال بين چونيفي وروساريو، مع أن رجلاً واحداً لم يستمرّ مع دونيا روبي طويلاً. وعلى الرغم من تلك الشكوك، فالوحيدة التي اعترف بها ودعاها أخته هي روساريو، أما الباقون فلم يكونوا أكثر من «أولاد دونيا روبي».

سألتُها عرضاً: «كم شقيقاً لكِ، روساريو؟».

فأجابتني: «ها! ما عدتُ أعرف كم صرنا، فقد بلغني أن دونيا روبي ظلّت تنجب حتى بعد رحيلي. وكأنها تملك ما يكفي لإعالتهم».

رحلَت روساريو عن بيتها وهي في الحادية عشرة من العمر. فبدأت مسيرة طويلة لم تسمح لها بالبقاء في الموضع نفسه لما يزيد على عام واحد. كان چونيفي أول من استضافها. طُرِدَت من آخر مدرسة التحقَت بها، إذ جازف المسؤولون بقبولها على الرغم من قصة «الجرح» الذي أحدثَته في وجه المُعلّمة ودونها الكثير من التجاوزات المشابهة، ولكن فعلتها الأخيرة كانت لا تُغتفَر (إذ اختطفَت إحدى المُعلّمات نهاراً كاملاً وقصّت شعرها بضربات مجنونة من المقصّ)، وهي الفِعلة التي جرّت عليها تهديدات جديدة بإرسالها إلى السجن الإصلاحي.

خرجَت دونيا روبي عن شعورها وقالت لروساريو: «ما دمتِ لم تُقبلي ولا حتى في السجن، فلا مكان لكِ في هذا البيت أيضاً. اغربي عن وجهي في الحال».

فالتجأت روساريو إلى أخيها بكلّ سعادة وسرور. ما كان أحدٌ ليشكّ بأنها تحبّه أكثر من أمها، وأكثر من أيّ شخص في العالَم بأسره. كانت تقول في زهوّ: «بل أحبّه أكثر من فيرني».

كان فيرني وچونيفي صديقَين، وشريكَيْن، ورفيقَيْن في العصابة نفسها. كانا في عمرٍ واحد، أكبر من روساريو بما يقرب من خمسة أعوام. لطالما



t.me/qurssan

أحبّت فيرني، منذ وقع بصرها عليه أدركَت أنه في منزلة أخٍ، وإن جاز لها أن تأثم معه.

كان إميليو يقول: «لم يخطر على بالي يوماً أن يكون لي منافس من تلك الأحياء».

وعبثاً رحنا نحذّره: «سيقتلونك».

- «بل سيقتلونه قبلي. وسترون».

حين تعرّف بها إميليو، كانت روساريو قد انفصلَت عن فيرني، وهجرَت حيّها وناسها منذ زمن. فأنزلها أشدّ الأشداء في شقّة فاخرة، قريبة جدّاً من شقّتنا بالمناسبة، وأعطوها سيارة، وحساباً جارياً، وكلّ ما هفَت إليه نفسها. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلَّ فيرني هو ملاكها الحارس، عشيقها السرّي، الذي يضع نفسه تحت خدمتها بلا شروط، البديل عن أخيها الراحل. وإذا فيرني يغدو صداعاً في رأس إميليو، وإميليو حصاةً في حذاء فيرني. ومع أنهما لم يتقابلا سوى مرّات قليلة جدّاً، فقد تناصبا العداء، وباتت روساريو هي الوسيطة التي تحمل رسائل الكراهية المتبادلة بينهما. كان فيرني يطلب منها أن تبلغ إميليو: «قولي لابن العاهرة هذا أن يتوخّى الحذر».

فيطلب منها إميليو أن تبلغ فيرني: «قولي لابن العاهرة هذا إني أتوخّى الحذر».

فتقول لهما روساريو: «ولماذا لا تقتلان أحدكما الآخر مرة وإلى الأبد، وتتركانني في سلام؟! لقد طفح بي الكيل من هذا الشدّ والجذب».

لطالما راقت لروساريو تلك الخصومة، على الرغم من شكواها. كانت هي أكثر من حرّض عليها، بطريقة أو بأخرى، وأكثر من تسبّب في ذلك الشدّ والجذب، بل إنها ولعَت بزرع العداوة بينهما، مستعينةً على ذلك بأكاذيبها.



t.me/qurssan

وحين قُتِل فيرني أخيراً، حسبنا أن روساريو سوف تشعر بالنقمة علينا، ولا سيما على إميليو، الذي كان يضمر له ضغينةً شديدة، ولكن لا، لم يجرِ الأمر كما حسبنا، فالمرء لا يعرف أبداً ماذا يتوقّع من روساريو.

«الشرطة تبحث عنك»، قالت لي إحدى المُمرّضات بغتةً، فأجبتُها سائلاً، وأنا ما زلتُ أفكّر في فيرني: «عني أنا؟».

- «ألستَ أنتَ من جاء بالمرأة المصابة بالرصاص؟».

- «روساريو؟ أنا الذي جئتُ بها».

- «اذهب إلى الخارج إذاً، فهم يريدون الحديث إليك».

في الخارج وجدتُ ما لا يقلّ عن اثني عشر رجل شرطة. لوهلة خلتُ أنهم بصدد تنفيذ عمليةٍ شاملة للإيقاع بنا، كما في الأيام الخوالي، حين كنتُ أساير إميليو وروساريو في جنونهما. رأت المُمرّضة وجهي فقالت: «لا تخَف، فرجال الشرطة يفوقون الأطباء عدداً خلال العطلات الأسبوعية».

أشارت إلى رجلَيّ الشرطة اللذين تولّيا قضيّتنا: كانا قاتمَيْن، وجهاً وزِيّاً. وبالبرود الذي لُقّنا إيّاه راحا يستجوبانني، كما لو كنتُ أنا المجرم، لا الآخرون. سألاني لماذا قتلتُها، وبأيّ سلاح أطلقتُ عليها النار، ومن هي القتيلة، وما صلة القرابة أو العلاقة التي تجمعني بها، وأين سلاح الجريمة، وأين شركائي في الجريمة، وهل أنا مخمور، ثم أخبراني بأني رهن الاعتقال، وطلبا مني مرافقتهما لأني محلّ اشتباه. فقلتُ لهما: «أنا لم أقتل أحداً ولم أطلق النار، ولا قتيلة هنا، لأنها ما زالت على قيد الحياة، اسمها روساريو، وهي صديقة، وأنا لا أحمل أيّ سلاح، دع عنك أن أحمل سلاح جريمة، ولا شركاء لي في الجريمة لأن شخصاً آخر هو الذي أطلق النار، ولم أعُد مخموراً لأن الخوف أزال عني أثر الشراب، وبدلاً من سؤالي عن



t.me/qurssan

حماقات والبحث في المكان الخطأ، ينبغي لكما القبض على من زجَّ بنا في هذه الورطة».

ثم درتُ على عقبي غير آبهٍ لما يمكنهما فعله. فصاحا فيّ قائلَيْن ألّا أحسب نفسي فحلاً بحقّ، لأننا سوف نلتقي ثانيةً في وقت لاحق. أما أنا فعدتُ إلى ركني الغارق في الغبش، على مسافة أقرب منها. لم أملّ تكرار اسمها: «روساريو، روساريو».

اضطررتُ إلى اعتصار ذهني حتى أذكر متى وأين رأيتها لأول مرة. لم أهتدِ إلى تاريخ لقائنا بها على وجه التحديد، ربما كان ذلك منذ ستة أعوام، أما المكان فذكرتُه، ديسكو أكواريوس، ذات جمعةٍ أو سبت، اليومَيْن اللذين ما كُنّا نتغيّب عن المكان خلالهما قطّ. كان الديسكو واحداً من الأمكنة بالغة الكثرة التي قرّبَت بين الطبقة الدنيا الآخذة في الصعود، وطبقتنا الراقية الآخذة في الهبوط. فهم أصبحوا يملكون النقود التي يسعهم إنفاقها في الأمكنة نفسها حيث كُنّا نشتري على الحساب، وباتوا يشاركون أهل طبقتنا في التجارة، وصرنا وإياهم في المستوى الاقتصادي سواء، وأصبحوا يرتدون الثياب نفسها، ويقتنون سيارات أفخم، ويحصلون على قدر أوفر من المُخدّرات، ويدعوننا للتعاطي معهم، فكان ذلك أفضل طعم قدّموه لنا. بل إنهم تميّزوا عنا بالمجازفة، والطيش، والمهابة. كانوا تجسيداً لما عجزنا عن بلوغه، لما أردنا أن نكونه دوماً، في قرارة أنفسنا. كُنّا نراهم يحشرون الأسلحة وراء فتحة السروال، ليصير النتوء أكثر بروزاً، ويثبتون لنا بألف طريقة أنهم أشد منا رجولة، وفحولة. كانوا يتغزّلون بنسائنا ويعرضون علينا نساءهم. كانت نساؤهم جامحات، جريئات مثلهم، يسلّمن أنفسهن تسليماً غير مشروط، ساخنات، خلاسيات، لهن سيقان قوية من فرط ما صعدن إلى أحيائهن العلوية، وإن كُنّ أقرب إلى هذه الأرض من نسائنا، وأسلس قياداً، وأسهل مراساً. وبين نسائهم، كانت روساريو.



t.me/qurssan

«كيف وقعتَ في حبها؟»، سألتُ إميليو.

- «ما كدتُ أراها حتى قُضِي الأمر».

- «أعرف أنك أُعجِبتَ بها حين رأيتَها، ولكني أقصد ذلك الشعور الآخر، الوقوع في الحب، أتفهم؟».

استغرق إميليو في التفكير، لا أدري ما إن كان يحاول فهم مقصدي أو يفتّش عن تلك اللحظة التي لا نملك فيها العودة إلى الوراء. ثم قال: «تذكّرت. ذات ليلة، بعد حفلٍ صاخب، قالت لي روساريو إنها جائعة، فذهبنا لتناول الهوت دوغ. وهناك، عند واحدة من تلك العربات الجائلة، أتعرف ماذا طلبَت مني؟ هوت دوغ بلا نقانق».

لم يخطر لي إلّا سؤاله: «وماذا في ذلك؟».

- «ماذا تقصد بـ"وماذا في ذلك؟". إنه سبب كافٍ حتى يقع أي شخص في الحب».

لا أدري ما إن كان الهوت دوغ بلا نقانق كفيلاً بأن يخلب العقل، ولكني مُتأكّد أن للوقوع في حبّ روساريو ألف سبب. وعلى الرغم من ذلك، لا أملك تحديد دافعي إلى الوقوع في حبها، ذلك أني لم أُتيّم بها لسبب مُحدّد، وإنما للأسباب الألف مجتمعة، وفق ما أعتقد.

«أتعجبك روساريو؟»، سألني إميليو، فأجبتُه كاذباً: «تعجبني أنا؟ أجننت؟».

- «تبدو عليك البهجة وأنت معها».

كذبتُ ثانية: «هذا لا يعني شيئاً، كل ما في الأمر أني أستلطفها جدّاً، ثم إننا صديقان مُقرّبان».

سألني إميليو بلهجة لم ترقني: «وفيمَ تتحدّثان طوال اليوم؟».



t.me/qurssan

- «لا شيء».

عاود السؤال بلهجة أكثر حدّة: «لا شيء؟».

- «عن كل شيء يا رجل، أفهمت؟ نتحدّث عن كل شيء قليلاً».

- «يبدو لي ذلك أمراً في منتهى الغرابة».

- «وما الغريب في ذلك؟».

- «لأنها لا تحدّثني عن أي شيء».

كنتُ وروساريو على استعداد للحديث طوال الليل، ولا أكذب حين أقول إننا كُنّا نتحدّث عن كل شيء قليلاً، عنها، عني، عن إميليو، فتنساب الكلمات بلا ملل، كُنّا ننصرف إلى الحديث فلا نحسّ جوعاً ولا نعاساً، ولا ننتبه إلى الساعات التي تمرّ فلا تفسد علينا حديثنا. كانت روساريو تتحدّث شاخصةً إلى العينَيْن، فتأسرني بعينَيْها مهما بلغ الموضوع من التفاهة، وتحملني عَبْر نظرتها القاتمة إلى أعمق أعماق قلبها، وبيدها ترشدني إلى سراديب حياتها المعتمة. كانت كل نظرة وكل كلمة رحلةً لا تسافر فيها إلّا معي. وقبل أن تحكي لي كل شيء، كانت تقول: «لو حكيتُ لك!».

كانت روساريو تتكلّم بعينَيْها، وبثغرها، وبكلّ وجهها. كانت متى وجّهَت حديثها إليّ تكلّمني بروحها، وتضغط على ذراعي إن أرادت التشديد على نقطة بعينها، أو تضع يدها النحيلة على فخذي إن تعقّدت الحكاية التي ترويها. لم تكُن حكاياتها يسيرة، بل إن حكاياتي بجوارها تبدو طفولية. ففي حكايتي تعود ذات الرداء الأحمر إلى جدّتها سعيدة، أما في حكايتها فيأتي الذئبُ على الطفلة الصغيرة وجدّتها والصياد، وترتكب بيضاء الثلج مجزرةً تذبح فيها الأقزام السبعة.

لم يبقَ شيء بيني وبين روساريو إلّا وتحدّثنا عنه. فعلى مدى أعوام



t.me/qurssan

طوال، أنفقنا ساعات إثر ساعات ونحن نروي حكاياتنا. كانت تتابع صوتي بنظراتها بينما أفقد ذاتي في كلماتها وعينَيها السوداوَيْن. كُنّا نتحدّث عن كل شيء قليلاً، ما عدا الحب.

«أهي حبيبتك؟»، سألَتني مُمرّضة لم تكُن مشغولة.

- «من؟ روساريو؟».

- «الشابة التي جئتَ بها مصابة».

لم يسعني يوماً التحقّق من طبيعة علاقتي بروساريو على وجه التحديد. كان الجميع يعرف أننا صديقان مُقرّبان، ربما كُنّا أقرب من المألوف، على حدّ قول الكثيرين، بَيْد أننا لم نذهب إلى أبعد مما رآه الناس قطّ. أعني، باستثناء ليلة واحدة، تلك الليلة، ليلتي الوحيدة مع روساريو المقصّ. أما في ما عدا ذلك، فلم نكُن أكثر من صديقَيْن مُقرّبَيْن كشف كلٌّ منهما للآخر عن حياته كي يظهر أمامه على حقيقته، صديقَيْن لا يملك أحدهما العيش من دون الآخر، كما أدركتُ اليوم وحسب. من طول ما أمضيا من الوقت معاً، ما عاد لأحدهما عن الآخر غنىً. ومن فرط ما تحابّا كما يتحابّ الأصدقاء، أوغل أحدهما في الحبّ أكثر مما ينبغي، أكثر مما تسمح به الصداقة، فكل شيء مباح في سبيل دوام الصداقة، إلّا خيانة الصديق لصديقته إن هو ترك الحبّ يتسلّل بينهما.

«صديقي. يا صديقي»، هكذا كانت تناديني روساريو.

لم يبقَ لي من الأعوام التي أمضيتُها برفقتها إلّا سؤالان. أولاً السؤال الذي لم تجبني عنه قطّ. وثانياً ماذا سيكون من أمرنا لو لم يقف إميليو بيننا. الآن أفكّر أن الأمر قد لا يختلف مطلقاً ولا حتى في تلك الحالة، أقولها لأن في المرأة هوساً عبثياً يدفعها إلى وصل الرجل الذي يحلو لها، لا الرجل الذي يحبّها.



t.me/qurssan

«روساريو معجبة بك»، كان يصرّ إميليو، فأصرّ أنا الآخر: «لا تتفوّه بحماقات».

- «إنه أمر في منتهى الغرابة».

- «وما الغريب في ذلك؟».

- «أنها لا تنظر إليّ كما تنظر إليك».



t.me/qurssan

# 3

كان أحد جيرانها ممن يسكنون في موضع أعلى، حيث يكاد الحي يبلغ نهايته، هو أول ضحايا روساريو المقصّ. وبسببه فازَت بلقبها، ومنه تعلّمت أنها قادرة على الدفاع عن نفسها وحدها، من دون مساعدة چونيفي ولا فيرني. منه تعلّمَت أن للحياة جانباً مظلماً، وأن ذلك هو الجانب الذي قُدِّر لها.

«يومذاك نزلتُ إلى وسط المدينة لشراء ثياب بالنقود التي أعطانيها چونيفي، فرافقَتني غلوريا. وفي طريق العودة سبقَتني إلى بيتها، إذ كانت تسكن في موضع أقل ارتفاعاً. فتابعتُ المسير وحدي. كانت الواحدة منا تسمع الكثير من الحكايات، ولكني لم أخشَ السير وحيدةً في تلك الشوارع قط، ولم يخطر لي أن يتعرّض لي أحدهم يوماً، وأنا أخت چونيفي. وعلى الرغم من ذلك، طلع عليّ شخصان وأنا على وشك الوصول إلى بيتي. كانا من المنطقة العلوية، من عصابة ماريو مالو، الرجل الذي يهرول الجميع مبتعدين عن طريقه، إلّا چونيفي، فظننتُ أن أحداً لن يتعرّض لي، ولا حتى هذين الشخصَيْن. ولكنهما تعرّضا لي في تلك الليلة. كان المكان شديد العتمة، فلم أتعرّف منهما سوى شخص واحد، يلقّبونه كاتشي، أما الآخر فلم أتبيّنه بوضوح. جذبني كلاهما إلى موضع واطئ في حين رحتُ



t.me/qurssan

أصرخ وأركل بقدمَيّ. ولكنك تعلم أنه كلما علا الصراخ في تلك الأنحاء اشتدّ ذعر الناس وأوغلوا في التواري عن الأنظار. وما حدث أنهما خرّبا ثوبي، ثم خرّباني أنا الأخرى. كبّل الآخر حركتي وكمّم فمي بينما راح كاتشي يفعل أفاعيله. وعندما حان دور الآخر، تمكّنتُ من الصراخ لأنه أطلقني ليتّخذ موضعه. سمعني بعض الناس فأقبلوا علينا، غير أن هذين المُخنّثَيْن انطلقا راكضَيْن عَبْر الأخدود. لك أن تتخيّل بأيّ حال وصلتُ إلى بيت أخي، كنتُ أشعر بالمهانة وأنتحب كالمجنونة، ولكنه ما كاد يراني حتى صار أشدّ مني جنوناً، سألني ماذا جرى، ومن فعل بي تلك الفعلة، حتى يقتل ذلك الوغد ابن العاهرة، غير أني لم أقُل شيئاً، كنتُ أعرف أنهما من أتباع ماريو مالو، وأني لو تكلّمتُ لاندلعَت حربٌ هي الأشدّ ضراوة، وأنهم قادرون على قتل چونيفي، وعلى الرغم من ذلك، فقد أصرّ، وراح يهدّدني بالقتل ما لم أخبره، فقلتُ له أن يقتلني، لأني لم أتبيّن الفاعلين. ربما كانوا من منطقة أخرى».

قطعَت روساريو حكايتها، وظلّت شاخصةً إلى نقطة ثابتة على الطاولة. فالتفتّ إلى الجانب الآخر، لأني لم أدرِ إلى أين أنظر، ثم رأيتُها تهزّ كتفَيْها وتتبسّم لي. فتجرّأتُ على سؤالها: «وماذا بعد؟».

- «ماذا بعد؟ لا شيء. بقيتُ كالخراء لوقت طويل. بل إن چونيفي خاصمني وثارَت ثائرته لأني لم أخبره بهوية الفاعل، ولكني لم أُرِد أن يقع له مكروه، فحسبي ما وقع لي. ما لم يعلمه چونيفي أني تمكّنتُ من تصفية حسابي لاحقاً. تصوّر أني بعد قرابة ستة أشهر ذهبتُ لزيارة دونيا روبي يوماً، وإذا بي أقابل كاتشي في الشارع. كدتُ أموت من فرط الذعر، ولكن يبدو أنه لم يتعرّفني. أعتقد أنه لم يتبيّن وجهي بوضوح في تلك الليلة، مع العلم أنه وأمثاله يخشون ضحاياهم مخافة أن يشوا بهم أو ينتقموا منهم.



t.me/qurssan

أما ذلك الشخص، أتدري ماذا فعل؟ أخذ يغازلني ويُسمِعني حماقاته. ما رأيك؟».

- «وماذا بعد؟».

- «ماذا بعد؟ أصبحتُ أجده في طريقي كلما ذهبتُ إلى بيت دونيا روبي، حتى ما عدت أتهيّبه، فقرّرت إرغامه على دفع الثمن. عندئذ بدأتُ أسايره في لعبة الضحك والغزل حتى صار في غاية السعادة. وفي وقت لاحق، بعد قرابة شهر، ذهبتُ إلى البيت يوماً فلم أجد دونيا روبي، عندئذ طلبتُ منه أن يحضر، وأن يدخل إلى البيت لأن ماما ليست هناك. ليس لك أن تتخيّل كيف اتّسعَت عيناه. وطبعاً، كنتُ أعرف ماذا أنوي فعله، عند ذاك مضيتُ به إلى الحجرة التي كانت حجرتي، وشغّلتُ الموسيقى، وتركتُه يقبّلني، تركتُه يتحسّس جسدي في الموضع نفسه، حيث انتهكني في المرة السابقة، قلتُ له أن يخلع ثيابه ويستلقي إلى جواري بهدوء، رحتُ أتحسّسه في ذلك الموضع، بالأسفل، فأغمض عينَيه وقال إنه عاجز عن التصديق، يا للروعة، وفي لحظة أبرزتُ مقصّ دونيا روبي الذي كنتُ أحتفظ به تحت الوسادة، وطاخ! استأصلتُ خصيتَيه بضربة من المقصّ».

فصحتُ دهشةً: «غير معقول!».

- «بل معقول، تصوّر. انطلق الرجل يصرخ كالمجنون، فرحتُ أصرخ فيه بأشدّ مما فعل، وأقول له أن يتذكّر تلك الليلة في الأخدود وأن ينظر إليّ جيداً لئلّا ينسى وجهي، ورحتُ أطعنه في كل موضع من مواضع جسده، فخرج راكضاً وهو ينزف، مُجرّداً من الخصيتَيْن، مُجرّداً من الثياب، في حين اكتفى المارّة بالمشاهدة».

- «وماذا بعد؟».

- «ماذا بعد؟ لا عدتُ إلى رؤيته ولا عرفتُ عنه المزيد. أما دونيا



t.me/qurssan

روبي، فما إن وقع بصرها على حمّام الدم الذي سفكتُه في البيت حتى أصيبَت بالهستيريا وقالت إنها لا تريد رؤيتي مرة أخرى هناك».

- «روساريو، وكم كان عمركِ حين مررتِ بكلّ هذا؟».

- «كنتُ قد أتممتُ الثالثة عشرة لتوي، لن أنسى ما حييت».

كانت روساريو كلّما حكت إحدى قصصها، بدا وكأنها تعيشها من جديد. فكانت تفتح عينَيْها الواسعتَيْن بالانفعال نفسه، وتشعر بالدهشة نفسها، أو تحرّك يدَيْها في هياجٍ يليق بواقعة جرَت لتوّها، وتستحضر الكراهية أو الحب أو أيّاً كانت المشاعر التي تملّكَتها آنذاك، مصحوبةً بابتسامة، أو دمعة (كما جرى في أغلب المرات). كانت روساريو قادرة على سرد ألف حكاية، فتبدو كلٌّ منها مختلفةً، مع أنها لا تزيد عن واحدة، حكاية روساريو في سعيها إلى الفوز على الحياة سدىً.

سألني إميليو، وهو الذي ما كان يعرف عن تلك الأمور إلّا قليلاً: «وبماذا تفوز؟».

تفوز عليها فحسب، وتُخضِعها، وتُرغِمها على الركوع تحت قدمَيْها كالغريم الذليل، أو على الأقل تخدع نفسها، كما نخدع أنفسنا جميعاً، فنحسب أن الحلّ يكمن في المهنة، والزوجة، والبيت الآمن، والأولاد. لم تكُن معركة روساريو هيّنة إلى هذا الحد، بل إن لها جذوراً ضاربة في الأعماق، تعود إلى زمن بعيد، إلى أجيال سابقة، فلقد ناءت روساريو بحمل الحياة مثلما ناءت بحمل هذا البلد، إذ كانت دماؤها مثقلة بجينات العامّة واللقطاء الذين شقّوا طريقهم في الحياة بحدّ الساطور، وما زالوا على عهدهم. بحدّ الساطور أكلوا، وعملوا، وحلقوا ذقونهم، وقتلوا، وأصلحوا الخلافات بينهم وبين نسائهم. أما اليوم فأصبح الساطور بندقية، ومُسدّساً من عيار 9 ملم، ومدفعاً رشّاشاً. اختلف السلاح واستخدامه واحد.



t.me/qurssan

الحكاية أيضاً اختلفَت، وباتت مرعبة. فلحق بنا الخزي بعد الكبرياء، من دون أن نفهم كيف ولماذا ومتى جرى كل ذلك. لا نعرف كم يبلغ تاريخنا من الطول، وإن كُنّا نرزح تحت وطأته. لطالما تحمّلَته روساريو، فهي لم تُولَد وفي فمها ملعقة من ذهب، بل وُلِدَت وفي فمها مذاق التعاسة.

ما كاد إميليو يردّ على الهاتف حتى سألني: «ماذا جرى؟ ماذا عرفت؟».

- «لا شيء. ما زالوا في الداخل».

- «ولكن ماذا يقولون؟».

- «لا يقولون شيئاً، ليس هناك من يعرف شيئاً».

سألني مُشوّشاً: «إذاً، فلماذا اتّصلتَ بي؟ اتّصل بي حين تعرف شيئاً. أشعر بالقلق يا أخي».

- «كم الساعة الآن؟».

- «لا أملك أدنى فكرة. لعلّها الرابعة والنصف تقريباً».

ظنّ چونيفي أن روساريو قد حبلَت إثر تعرّضها للاغتصاب. رآها تسمن، ولكن حساب الأشهر لم يسفر عن شيء. فأرغمها على الذهاب إلى الوحدة الصحية لقطع الشك باليقين، مع أنها أصرّت على أنها لم تكُن حبلى. كان يقول لها: «خير لكِ ألّا تكوني حبلى، فنحن لن نربّي لقيطاً في هذا البيت».

أما الشيء الذي لم ينتبه إليه چونيفي فهو قدرة روساريو على التهام محتويات الثلّاجة في يوم واحد. تفنّنَت في إخفاء الأمر لئلّا ينتبه إليه أحد، فكانت تردّ العبوات الخاوية إلى الثلّاجة بعد أن تأتي على ما فيها، أو تعوّض ما أكلَته بالبضائع التي تشتريها على الحساب من الدكان القائم على الناصية، ما لم تأتِ عليها وهي في الطريق إلى البيت. ولكن الشيء



t.me/qurssan

الذي وضع حدّاً لشكوك چونيفي، وفضح روساريو، هو حساب الدكان تحديداً. قال لها چونيفي ممسكاً بالفاتورة: «أوضحي لي ما هذا، خمسة أرطال من لحم الخنزير المُقدّد، وثلاثة أرطال من السكر، ولتران من المُثلّجات، وكعكة، وثلاث وعشرون قطعة شوكولاتة، متى يمكن للواحد أن يأكل ثلاثاً وعشرين قطعة شكولاتة؟ وست دزينات من البيض، وثمانية أرطال من اللحم، واثنا عشر لتراً من الحليب، علماً أن الوحيدين الذين يأكلون في هذا البيت هم أنتِ وأنا ودايسي، وهذا حساب الشهر الحالي، الشهر الحالي فحسب، أسدي إليّ معروفاً وأوضحي لي ما هذا؟».

فأجابَته روساريو في تحدٍّ: «ماذا تريد أن أوضح إليك؟ أنا الذي أكلتُ كل هذا، ولو خطر لك أن تصرخ فيّ بسبب هذا الحساب اللعين، فسأدفعه بنفسي».

– «مَن رآك على بعد أميال لاحظ أنكِ أنتِ التي أكلتِ كل هذا. أتحسبين أني أحني ظهري من فرط العمل لتبقي أنتِ هنا بلا عمل وتسمنين كالبقرة، أتحسبين أني أجازف وأخاطر بنفسي وأضع حياتي على الجبهة بحثاً عن النقود، لتعيشي أنتِ هنا مُعزّزة مُكرّمة كالملكات؟».

فقالت روساريو باللهجة نفسها: «ما دمتَ مصدوماً إلى هذا الحدّ، فأنا عائدة إلى بيت أمي».

– «تعرفين أن دونيا روبي لا تريد حتى أن ترى وجهك. لا أدري ماذا فعلتِ هناك، ولكن يبدو أنكِ خرّبتِ بيتها. ماذا فعلتِ، روساريو؟ لأن قصة العادة الشهرية لا يصدّقها أحد. فلو كانت تلك هي الحقيقة، لكنتِ الآن في النفس الأخير. ولا تبكي، لا تبكي، هذا الكلام لكِ أنتِ أيضاً، دايسي. لماذا تبكي النساء جميعاً بمُجرّد أن نتحدّث إليهن؟».

قالت روساريو باكيةً: «أنا لا أبكي».



t.me/qurssan

ثم قالت دايسي، وهي تغصّ بالدموع: «ولا أنا».

لطالما بكَت روساريو غضباً، فلم أرَها تبكي حزناً إلّا في ما ندر. والحق أنها لم تكُن من المدمنات على البكاء، فما كانت تلوذ به إلّا في الحالات القصوى، ومن ضمن الحالات القصوى رؤية أخيها، حبّ حياتها، وهو غاضب منها.

قالت وهي تستحضر ذكراه: «من أجله كنتُ أتخلّص من الوزن الزائد في كل مرة. ما كانت تروق له رؤيتي بدينة، بل كان كلما رآني وقد زدتُ بضعة كيلوغرامات عاجلني بالصراخ في وجهي، وكلما رآني منتفخةً، سعى إلى التحقّق مما أنا مُتورّطة فيه آنذاك. ما كان يحبّ أن يراني مُتورّطة في المشكلات».

رأيتُها بدينةً عدة مرات، كلما زجّت بنفسها في مشكلة جسيمة، كلما تزامنَت القبلة والرصاصة. كان إميليو يقول لها ثائراً: «لا أفهم هوسك بتقبيل الموتى!».

- «أي موتى؟ قبلتي تسبق الموت».

- «سيّان، ولكن ما صلة القبلة بالموت؟».

تعلّم إميليو الحديث عن الموت بالتلقائية التي تقتل بها روساريو. ولع بالانسياق وراءها، فراح يزجّ بنفسه في عالَم روساريو الغريب رويداً رويداً، ولمّا انتبه إلى مدى تورّطه، كان قد غرق حتى أذنَيْه في الرذائل والديون والمشكلات. تمرّغ معها في الوحل من أجل الفوز بها، وكنت أرافقه في سقوطه من آنٍ إلى آخر.

أوضحَت لنا روساريو قائلةً: «أشعر نحوهم بالشفقة. وأعتقد أنهم يستحقّون ولو قبلة واحدة قبل الرحيل».

سألتُها مُتطفّلاً: «ما دمتِ تشفقين عليهم، فلماذا تقتلينهم؟».



t.me/qurssan

- «لأن أجَلهم قد حان. كما تعلم».

لم أكُن أعلم شيئاً. تورّطتُ معهما بدافع حبي لهما، لأني ما كنتُ أملك العيش من دون إميليو وروساريو، لأني في عمري هذا كنتُ أريد الإحساس بالحياة إحساساً جارفاً، ومعهما كانت المغامرة مضمونة. أما الآن، فلا أفهم كيف تحلّيتُ بالجرأة اللازمة لمرافقتهما، مثلما يغمض المرء عينَيه حتى يلقي بنفسه في مسبحٍ بارد. كان إميليو يسألني في كل مرة: «وأنت ما رأيك؟».

فأجيبه في كل مرة، وإن كنتُ أعرف المسار الذي سيتّخذه الحديث مسبقاً: «ما رأيي في ماذا؟».

- «في روساريو، في كل شيء».

- «ما عاد لدينا ما نكسبه بالرأي. لقد انشقّت الأرض وابتلعَتنا».

بعد أشهر قلائل وقعنا في أول مأزق بلا مخرج، في الديسكو نفسه حيث تعرّفنا بروساريو. كان إميليو قد صار حبيبها رسمياً، فلم يمانع التباهي بها في كل مكان، لم تسعه نفسه، وراح يستعرضها وكأنها من أميرات موناكو، غافلاً عما يُقال عنها وعن أصلها، أما أنا فكنتُ رفيقهما الدائم. لم يأبه لتهديدات فيرني وعصابته، التهديدات التي تلقّاها إميليو لأنه انتزع روساريو من بين يدَيّ فيرني، وتلقّتها روساريو لأنها باعَت نفسها. في تلك الليلة عايرها أحدهم وهي في دورة المياه، قال لها: «لقد بعتِ نفسكِ».

- «لا تعبث معي، پاتو، ولا تزجّ بنفسك في هذا. أتريد جرعة؟».

ولكن يبدو أنه نفخ محتويات اللفافة الصغيرة في وجه روساريو بمُجرّد أن فتحَتها، فتملّكها غضب عارم. مسحَت عينَيها الملتهبتَين ورأت



t.me/qurssan

أن الرجل ما زال هناك، قالت: «لن نهدر هذه الجرعة يا عزيزي پاتو. الحس وجهي ثم قبّل فمي، بلسانك».

لم يفهم پاتو أسلوبها، ولكنه نزل عند طلبها تعويضاً عما بدر منه. راح يلحس وجنتَيها، وأنفها، وأجفانها، تاركاً خلفه طريقاً رطباً يشقّ آثار المسحوق الأبيض. وبعد ذلك، وصل إلى فمها، كما أمرَته، فأبرز لسانه، ومرّر إلى روساريو ذلك المذاق اللاذع. في حين أبرزَت هي المُسدّس من حقيبتها، ثم ألصقَته ببطن الآخر، وما كادت تلحس لسانه كاملاً حتى أطلقَت النار. فكان آخر ما سمعه: «عليك أن تبدي لي الاحترام يا عزيزي پاتو».

ثم إنها ردّت المُسدّس إلى مكانه وذهبَت إلى الطاولة في هدوء قائلة: «هيّا بنا، لقد سئمت».

ومن دورات المياه جاء صخب عارم، إذ عُثِر على جثمان القتيل. ثار أفراد عصابة فيرني، وراحوا يصرخون ويستلّون أسلحتهم، بينما أشار أحدهم إلى روساريو. تبادلتُ أنا وإميليو نظرةً، بينما تظاهرَت روساريو بأنها تضع طلاء الشفاه، ثم قلتُ: «هيا بنا من هنا، إميليو. فأنا أيضاً سئمت».

وفيما هرولنا هاربين، أحسستُ بالرصاص يمرّ على الجانبَيْن. فاستلّت روساريو سلاحها مُجدّداً وشرعَت تطلق النار إلى الخلف. خرج الناس مذعورين، وسط فوضى من الصراخ والهستيريا. لا أدري كيف وصلنا إلى السيارة، لا أدري كيف أفلحنا في الخروج من المرأب، لا أدري كيف ما زلنا على قيد الحياة.

وصلنا إلى البيت، وحكَت لنا روساريو الأمر برمّته. فسألها إميليو عاجزاً عن التصديق: «ماذا فعلتِ؟!».

أجل، قتلَته في حضورنا. أقرّت بذلك وهي لا تشعر بالخزي من فعلتها. وقالت إنه لم يكُن الأول، ومن المُؤكّد أنه لن يكون الأخير.



t.me/qurssan

- «هكذا يدفع الثمن كل من يوجّه لي الإهانة».

عجزنا عن التصديق، ورحنا نبكي ذعراً ودهشةً. استحوذ اليأس على إميليو وكأنه هو القاتل، فراح يركل قطع الأثاث، ويتباكى، ويلكم الأبواب. لم يتأثّر بالجريمة بقدر ما خرج عن شعوره حين أدرك أن روساريو لم تكُن حلماً، وإنما واقعاً. وبطبيعة الحال، لم يكُن هو الوحيد الذي شعر بالخذلان. قالت لنا روساريو: «لقد طفح بي الكيل من رفقة أمثالكما من المُخنّثين!».

تلك الليلة قلتُ في نفسي إن ذلك آخر عهدنا بروساريو. غير أني كنتُ مخطئاً. لا أعرف كيف استطاعت الإفلات من دفع الثمن عن ذلك القتيل، ولم نعرف يوماً في أي لحظة أفقنا من الحلم وصرنا جزءاً من الكابوس.



t.me/qurssan

# 4

من نافذة المستشفى تتبدّى ميديّين كالمغارة التي تُقام احتفالاً بأعياد الميلاد، والأنوار الدقيقة المُرصّع بها الجبل تتلألأ مثل النجوم. لم يبقَ مكان واحد معتم في المنحدر الجبلي الذي تكسوه الأنوار من السفح إلى القمة. يلتمع ذلك «الفنجان الفضي» أكثر من أي وقت مضى، وتضفي عليه الأبنية المضاءة مظهراً كوزموبوليتانياً ينمّ عن العظمة ويحدونا إلى التفكير بأننا قد ودّعنا التخلّف، يشقّه المترو نصفَيْن، المترو الذي رأيناه يمرّ لأول مرة فحدّثَتنا الظنون بأننا قد ودّعنا الفقر أخيراً.

كُنّا نقول جميعاً ونحن نتأمّل المدينة من مكاننا بالأعلى: «كم تبدو جميلةً من هنا».

على مبعدة خمس دقائق بالسيارة، وفي أي اتجاه، كان المرء يجد مشهداً بانورامياً شاملاً للمدينة. كُنّا نرى ألقَ المدينة ساطعاً على وجه روساريو، الحائرة أمام «مغارة الميلاد»، فنشعر بالامتنان لغزاة الجبال. قرّبَتني روساريو إلى المدينة، مدينة الأنوار الدقيقة. أطلعَتني عليها ببطء، ولكنها بعد مضي ردح من الزمن رفعَت إصبعها مشيرةً إلى المكان الذي جاءت منه. تتلمذتُ على يدَيْها خطوة خطوة، وقد ساعدَتها الثقة والمودة وكؤوس الشراب على الإفضاء إليّ بأسرارها. أما القليل الذي لم تصارحني



t.me/qurssan

به، فقد استدلَلتُ عليه من حكاياتها. كانت روساريو تقول: «إن النزول من الحيّ العلوي إلى هنا يشبه زيارة ميامي لأول مرة. في ما مضى، كُنّا نذهب إلى وسط المدينة على الأكثر، ولكن وسط المدينة مُجرّد حظيرة أخرى. أما هذا الموضع، حيث يقع حيّكم، فما كُنّا نأتي إليه قط. ولماذا نأتي؟ لتهفو نفوسنا إلى ما لا نستطيع؟».

فسألتُها متجاهلاً أهمية المسألة الأخرى: «روساريو، هل زرتِ ميامي؟».

أجابَتني: «مرتَيْن. في الأولى دعاني أحدهم إلى رحلة حبّ، وفي الثانية ذهبتُ للاختفاء عن الأنظار».

- «ومن دعاكِ، روساريو؟».

- «أنت تعلم، الوحيدون الذين يعطونني كل شيء».

تأثّرتُ بمنطقة روساريو في المدينة، بقدر ما تأثّرَت هي بمنطقتي، مع الفارق أني لم أستطِع مقارنة حيّها بميامي على الإطلاق، ولا بأي من الأمكنة التي عرفتُها. يومَ قُدِّر لي أن أرافقها إلى هناك، قالت: «إن كنتَ لا تعلم، فهذا جزء من مدينة ميديّين أيضاً».

ذات مرة أفاقت روساريو مُبكّراً جدّاً في شقتها الجديدة الفاخرة على خبر العثور على جثة أخيها. قتلوه. اتّصلَت بي أولاً، سألتُها: «ومن أخبركِ؟ آرلي؟».

صوّبَت قولي في غير حماس: «فيرني. غير أنه لا يستطيع الحضور لمرافقتي الآن، ولهذا أنا في حاجة إلى خدمتَيْن منك: أن ترافقني أولاً...».

لم أدرِ ماذا أقول: «ولكن، روساريو...».

- «هل سترافقني أم لا؟».

لم يسعني الرفض: «حسناً. وماذا عن الخدمة الأخرى؟».



t.me/qurssan

- «ألّا تخبر إميليو بشيء. عدني بأنك لن تخبره».

كثيراً ما كانت تطلب مني تلك الخدمة، فتضعني بذلك بين المطرقة والسندان. كنتُ أشعر وكأني أخون أعزّ أصدقائي، الذي أملك من الأسباب ما يجعلني أحبّه أكثر مما أحبّها. ولكن لأن روساريو هي التي تتلاعب بالمشاعر، كنتُ أرضيها بصمتي في خاتمة المطاف، مع أن ذلك السرّ لم يدُم طويلاً، لعجزها عن إخفائه.

ها هي ذي المرأة القوية التي حدّثتني عَبْر الهاتف، راضخة أمام الأمر الواقع. ذهبتُ إليها، فاضطُرِرتُ إلى مساعدتها وهي تستقلّ السيارة. كانت منهارة، واستحوذ عليها الألم والغضب، فأخذَت تبكي وتلعن، وتتوعّد بالموت حتى الرّب ذاته. كانت مُسلّحة. فاضطررت إلى إيقاف السيارة وقلتُ لها إني لن أصحبها ما لم تسلّمني مُسدّسها. فلم تلقِ إليّ بالاً، بل إنها ترجّلَت من السيارة وصوّبَت سلاحها إلى قائد سيارة أجرة حتى أرغمَته على التوقّف، فترجّلتُ أنا الآخر وأمسكتُ بها، كانت تلك أول مرة أراها وهي تبكي. خفضَت سلاحها وطفقَت تبكي على عنقي. ثم عُدنا إلى السيارة، حيث غلبَتني مرة أخرى، فلا سلّمَتني المُسدّس ولا استطعتُ أن أتركها وحيدة. هدأت روساريو لاحقاً وكأنها قد تعاطَت شيئاً. ثم قالت: «قتلوا حبّ حياتي يا صديقي، الوحيد الذي أحبّني».

شعرتُ بالغيرة. الغيرة التي لم يُثِرها إميليو في نفسي قط، أثارها يومذاك أخوها الراحل. فكّرتُ في ضرورة الإفضاء لها بكلّ مشاعري، وإيقاظها من غفلتها العاطفية، والبوح إليها بأن هناك من يحبّها أكثر من الجميع.

«أنا أحبّك، روساريو...»، شرعتُ أقول لها في حزم، ثم أضفتُ وقد تملّكني الجُبْن: «كلنا نحبّكِ».

عجزتُ عن البوح إليها في تلك المرة أيضاً. زد على ذلك أنه لم يكُن



t.me/qurssan

اليوم المناسب لمصارحتها بالحب، ورأيتُ أني كنتُ على صواب في هذا الرأي.

لم تُجِبني روساريو إلّا بقولها: «أشكرك يا صديقي».

بلغنا الجزء المنخفض من حيّها، فبدأت ترشدني إلى الطريق. دخلنا إلى متاهة في أرض غريبة، فلم يبقَ أمامي سوى الامتثال لإرشاداتها، ووضعتُ ناقل الحركة على أبطأ سرعة. وإذا كل شيء ذهول أمام المنظر، وحيرة أمام العيون التي تابعَتنا في صعودنا، نظرات لا أعرفها، أشعرَتني بالغربة، ولفتات أرغمَتني على التساؤل عما أفعله هناك، أنا الغريب. ثم قطعَت روساريو تأمّلاتي: «اتركني هنا. سأتابع سيراً».

- «ولكن، لماذا؟ سآخذكِ إلى بيتك».

- «السيارة لا تصعد إلى أبعد من هذا. ولا بدّ من السير ابتداءً من هنا».

ترجّلَت من السيارة مرتجفةً، شاحبةً، وقد غلبها الخوف الذي لم تملك مداراته. جذبَت حقيبتها بقوة ثم وضعَت على عينَيْها نظارة للوقاية من الشمس التي بدأت في البزوغ. فأصررتُ بقولي: «سآتي برفقتكِ، روساريو».

- «الأفضل أن أمضي وحدي. سأخبرك بكلّ شيء لاحقاً».

دارَت على عقبَيْها ومضَت صعوداً عَبْر مرتفع غير مرصوف. مضَت بسلاسة، وكأنها تسير على أرض مُسطّحة. رأيتُ ساقَيْها المشدودتَيْن، وعجيزتها البارزة، وقوامها المنتصب، مع أنها سارَت مُثقلَةً بأشدّ آلامها. بادرها أحدهم بالتحية عَبْر أحد الأبواب. ها هي ذي روساريو قد عادت إلى ناسها.

«روساريو! لا تفعلي شيئاً قد يحزنني!»، صحتُ فيها من داخل السيارة، ولكنها لم تتمكّن من سماعي.



t.me/qurssan

آلَمَتني حياتها كلّها، وكأنها حياتي أنا. كان الحزن يغمرني لمرآها تتعذّب، فرحتُ أفتّش في كل إمكاناتي عن طريقة لإسعادها.

- «يا آنسة! يا آنسة! معذرة»، كانت المُمرّضة قد غفت وهي في موقع المناوبة.

- «ها؟!».

- «معذرة، ولكني أريد الاطمئنان على روساريو، المرأة التي في غرفة العمليات».

فسألَتني وهي تبذل ما في وسعها للعودة إلى أرض الواقع من جديد: «من؟».

«روساريو المقـ...»، وهذا كل ما استطعتُ قوله، لأنها ما كادت تشعر باليقظة حتى قاطعَتني: «ما دمنا لا نعرف شيئاً فهذا لأننا ما زلنا لا نعرف شيئاً».

حاولتُ سؤالها عن الوقت: «كم الساعة الآن؟»، فلم تجبني، وإنما أغمضَت عينَيها وهي تلتمس دفء مقعدها. نظرتُ إلى الساعة المُعلّقة على الجدار، ثم قلتُ بصوت خافت لئلّا أوقظها: «الرابعة والنصف».

سرعان ما يمرّ الوقت! أكاد أجزم بأني رأيت روساريو لآخر مرة منذ شهر واحد لا أكثر، حين قرّرتُ وإميليو الإقلاع عما نفعله، وإلّا صرنا أسوأ منها حالاً. كانت روساريو عازمة على الإطاحة بمن يقف في طريقها، أيّاً كان. إذ استقرّ في رأسها أن تحصل على النقود وحدها، وأن تغدو أثرى من أولئك الذين يساندونها. الشيء الذي أشاع الخوف في نفسَيْنا أنها لم تكُن تعرف إلّا طريقة واحدة لتحقيق ذلك، طريقتهم هم. كانت تقول لنا: «الأمر في غاية السهولة، في غاية السهولة، فلا حاجة بنا سوى للأعوان، وهم عندي بالفعل».



t.me/qurssan

غير أنها لم تكُن مسألة أعوان وحسب، بل كان علينا التحلّي بقلب روساريو الجريء، ورغبتها، ونحن لم يبقَ لنا شيء من الرغبة بعد كلّ المآزق التي ورّطَتنا فيها، ولا كانت بنا حاجة إلى النقود، أما القلب الجريء فقد خسرناه منذ أمد بعيد. وبدلاً من المضيّ برفقتها في مغامرتها الجديدة، رحنا نتهيّأ للوداع.

بعد مقتل أخيها بأسبوع، اتّصلَت بي روساريو في الثالثة فجراً. لم أكُن قد توقّفت عن البحث عنها في الأيام السابقة، فلم أنزعج لأنها أيقظَتني. ما كدتُ أتعرّف صوتها حتى سألتها: «أين أنتِ؟».

- «اليومَ ندفن چونيفي».

- «كيف هذا، وقد رحل منذ ثمانية أيام؟».

- «كُنّا معه في نزهة».

سألتُها حائراً: «كنتم ماذا؟».

أجابت خافضةً صوتها: «سأحكي لك في وقت لاحق، أما الآن فلا أستطيع الحديث طويلاً. اسمع يا صديقي، سأقضي بضعة أيام في الخارج، وأتصل بك حين أعود».

- «كيف هذا، روساريو؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

- «لا تقلق بشأني، سأتصل بك لاحقاً. ولكن، أبلغ إميليو بأني اضطُرِرت إلى مرافقة أمي إلى... إلى مدينة بوغوتاه، إلى بيت أختي».

- «روساريو! مهلاً، أخبريني، ماذا يجري؟».

- «وداعاً يا صديقي. سأخبرك بكلّ شيء لاحقاً»، ثم أنهَت المكالمة.

وبالطبع، كان إميليو أقلّ درايةً مني بما يجري. كان ينهار كلما ضاعَت من بين يدَيْه، ويكاد يفقد عقله بسبب كل ذلك الغموض الذي يلفّ روساريو.



t.me/qurssan

وكان في كل مرة من المرات -الكثيرة- التي خاضت فيها روساريو أموراً من هذا القبيل يقسم إنه سوف ينهي كل شيء، ولكنها كانت تعرف كيف تتعامل معه، فتتركه يُسمِعها أسطوانته المشروخة حتى آخرها، وبعد ذلك تخلب عقله في الفراش. قال إميليو وهو يستشيط غضباً: «الشيء الذي يثير حنقي أنها لا ترجع إليّ في أي شيء! وكأني لست موجوداً!».

فأجبتُه محاولاً التماس العذر لها: «ولكنها اتّصلَت وطلبَت مني أن أخبرك بكلّ شيء».

- «هذا أغرب وأغرب!».

- «وما الغريب في ما قلت؟».

- «أنها اتّصلَت بك أنت ولم تتّصل بي أنا!».

كان إميليو مُحقّاً. ولكنه لم يتحلَّ يوماً بالصبر اللازم كي يجلس ويفهم روساريو. ربما تعوّد على المباشرة لأنه فاز بها، أما أنا فكان عليّ أن أتخيّلها، بل إني درستُ كل خطوة حتى أتقرّب إليها، راقبتُها بعناية لئلّا أتهوّر، أدركتُ ضرورة كسبها إلى صفّي قليلاً، وبعد أن درستها طويلاً في صمت، تمكّنتُ من فهمها والتقرّب إليها كما لم يتقرّب إليها أحد، والفوز بها على طريقتي أنا. ولكني علاوة على ذلك أدركتُ أن روساريو سلّمَتنا نفسها على شطرَيْن: فكانت روحها من نصيبي، وجسدها من نصيب إميليو. غير أني ما زلتُ لا أدري أيّنا حصل على الشطر الأفضل.

بعد تلك المكالمة الهاتفية بشهر، ظهرَت روساريو، بدينة. لم تكُن هي نفسها التي تركتُها على المرتفع الجبلي. لاح في لفتاتها شيء مخيف، شيء جعلني أتوجّس رياح الشرّ الآتية. حدّدَت لي موعداً في مركزٍ تجاريّ قريب من شقتها، في قسم المواد الغذائية، حيث وجدتُها تلتهم شرائح البطاطس المقلية وتتجرّع مخفوق الحليب، وجدتُها وقد ارتدَت كنزة ووضعَت على



t.me/qurssan

عينَيها نظارة داكنة. صُدِمت. كانت أشدّ جموحاً من أيّ وقت مضى. وبعد التحية، سألتُها: «روساريو، ماذا يجري؟».

- «أتريد بعض شرائح البطاطس؟».

- «أريد منكِ أن تخبريني ماذا يجري».

- «اشترِ لي كوباً آخر من مخفوق الحليب يا صديقي. فأنا لم أُحضِر المزيد من النقود».

لم يكُن انتزاع الأخبار منها يسيراً، ما لم يسقِها الواحد خمس كؤوس من الخمر. غير أني لم أتحلَّ بما يكفي من الصبر لأنتظر قرارها بأن تُفضي إليّ بما جرى. قلتُ لها: «سيقتلكِ إميليو لو رآك. فهو الآن غاضب حقّاً، ولا يريد أن يرى وجهك».

فانفجرَت روساريو: «فليأكل الخراء! ولا أنا أريد رؤية وجهه!».

- «روساريو، ليست هذه هي المسألة. لقد انشغلنا عليك، تغيبين هكذا، بين عشية وضحاها، ثم تظهرين هكذا».

فسألَتني في تحدٍّ: «ماذا تعني بـ"هكذا"؟».

- «سأكون صادقاً معكِ، روساريو، تصرفاتكِ في غاية الغرابة».

- «وما الغريب في أمري؟ ها؟ قُل لي، ما الغريب في أمري؟».

من يدري ماذا كان يحدث لو أجبتُ عن سؤالها. علماً أن مُجرّد تعقيب من جانبي جعلها تطيح بكلّ ما كان على الطاولة بذراعها، ثم نهضَت وهي تستشيط غضباً، وأخذَت ترمق كلّ من ينظر إليها في تحدٍّ.

- «ماذا؟ هل فقدتم شيئاً؟ ليس هذا من شأنكم، يا أولاد العاهرات!».

فامتثل الجميع. وخيّم صمتٌ مطبق سمح لنا بسماع خطاها الساخطة وهي تبتعد. أخذ الحضور يرمقونني خلسةً. كنتُ حائراً لا أدري ما العمل،



t.me/qurssan

ثم اشتدّت حيرتي، إذ هممتُ بالنهوض فرأيتُ روساريو عائدةً. ألصقَت وجهها بوجهي، ومع أنها حاولت خفض صوتها، فهي لم تملك إلّا الصياح: «ما نفع الأصدقاء، أيها المُخنّث؟! ما نفعهم؟»، استطعتُ رؤية دموعها من خلال النظارة. «إن لم يسعني الاعتماد عليك، فعلى من أعتمد! أنت أقلّ نفعاً من الخراء! لم أتّصل بك لتنغّص عيشي، ولا لتخبرني بأني بدينة».

أوضحتُ لها: «لم أقُل إنكِ بدينة».

- «ولكني رأيتُ في عينَيْك أنك تريد قولها! اعلمْ أن وزني سيزيد أكثر مما زاد، لأنكم ما عدتم تهمّونني، لا أنت، ولا إميليو، ولا أحد، أسمعت؟ لا أحد يهمّني، لأن الوحيد الذي كان يهمّني قد سقط قتيلاً، فلم يهمّك ذلك».

منعها الغضب والبكاء من الاستمرار. أخذَت ترتجف وقد غصّت بكلماتها. شعرتُ برغبة تدفعني حتى أعانقها، وأجذبها نحوي، وأمطرها قبلاً، وأقول لها إن كل أمورها تهمّني، أكثر من شؤوني الخاصة، أكثر من حياتي، وددتُ لو أبكي معها، مُتأثّراً بغضبها، وحزنها، وسكوتي.

- «أنتِ تهمّينني حقاً، روساريو».

لم أزِد على قولي شيئاً. ومع أني سبقتُها إلى التفكير بذلك، كانت هي التي عانقَتني.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 5

«روساريو، تزوّجيني»، عرض عليها إميليو، فأجابته سائلةً: «هل أنت أحمق؟ أم ماذا؟».

- «لماذا؟ ما الغريب في هذا؟ ما دمنا نحبّ أحدنا الآخر».

- «وما علاقة الحبّ بالزواج؟».

عرفتُ أنها رفضَت فاطمأنت نفسي. كان إميليو قد أخبرني بنيّته، فلم أقُل شيئاً، أولاً لأني أعرف روساريو، وثانياً لأن إميليو عرض عليها الزواج مدفوعاً بالتمرّد أكثر منه بالحبّ. ضغطَت عليه أسرته بقوة حتى يترك روساريو، وأوصدَت في وجهه الأبواب، وحرمَته من المزايا، وبدأت في التعامل معه كالمشبوه. حكى لي قائلاً: «تخيّل أن ماما بدأت توصد كلّ شيء بالمفتاح. يا له من أمر غريب! لا ينقصها إلّا وضع قفلٍ على الهاتف، أو محاسبتي على المكالمات التي أجريها».

ولكن ما لفت انتباهي في العرض الذي قدّمه إميليو، كان ردّ روساريو، لأنها لمحَت التناقض الذي تنطوي عليه تلك الصلة التي يفترض الجميع وجودها بين الحبّ والزواج. فأيقنتُ أنها تملك وجهة نظر، تتوارى خلف جمالها وعنفها، بل وتملك وجهة نظر عقلانية أيضاً. كان كل ما أكتشفه



t.me/qurssan

بشأن روساريو يرغمني على المضيّ قدماً في حبّها، وهي التي كلما أوغلتُ في حبّها أوغلَت في البعد عني.

سألتُ إميليو: «وماذا إذاً؟ أتتزوّجها أم لا؟».

- «لن أتزوّجها مطلقاً! لتلك المرأة شؤون في منتهى الغرابة. فضلاً عن ذلك، فمن أين لنا بالنقود اللازمة؟ ألم ترَ أن أهلي ما عادوا حتى يلقون عليّ التحية؟».

- «وما السبب في ذلك؟».

- «إنها ماما التي استحوذَت عليها الهواجس».

كان إميليو سليل أسرة تنتمي إلى المَلَكيّة الكريولية(*)، تاريخها حافل بالعراقة والعادات. إنهم من أولئك الذين لا يصطفّون في الطابور قطّ، في أيّ مكان، ظنّاً منهم بأن ذلك دون منزلتهم. كما أنهم لا يدفعون لأحد، كائناً من كان، اعتقاداً بأن لقب عائلتهم رصيدٌ كافٍ. يتحدّثون بالإنجليزية اعتقاداً بأن ذلك أكثر رقيّاً، ويحبّون الولايات المُتّحدة الأميركية أكثر مما يحبّون هذا البلد. لطالما حاول إميليو التمرّد على الوضع القائم. فتسبّب في طرده من مدرسة اللغات، والتحق بالمدرسة حيث تنتهي الحال بجميع الكسالى. أراد الالتحاق بالجامعة الحكومية، فلم تكُن أسرته هي التي حالت دون ذلك، وإنما تقديره الدراسي. والأدهى من هذا وذاك أنه قدّم لهم روساريو في وقتٍ لاحق. يومَ تعرّفَت أمه بروساريو قالت له: «من الواضح أنها من طبقة دنيا، فهي لا تعرف حتى كيف تأكل»، فأجابها: «تعرف كيف تأكلني أنا. وهذا ما يهمّني».

ومع أني كنتُ أضيق بأيّ صنفٍ من صنوف الرفض تجاه روساريو،

---

(*) كريولي: مصطلح درج استخدامه تاريخيّاً للإشارة إلى الشخص الذي وُلِد في المستعمرات لأبوين من أوروبا. (المترجم).



t.me/qurssan

سعدتُ بذلك الرفض الذي أبدَته لها أسرة إميليو. وعلى الرغم من تمرّده عليهم، فهو لم يجرؤ يوماً على تحدّيهم برابط مختلف عن ذلك الذي جمعه بروساريو. وكما يجري في معظم الأحيان، كان النصر حليف الوضع القائم. فبعد روساريو، عادت المياه إلى مجاريها، وصار إميليو الآن يحصل على راتب ضخم، ويعمل مع أبيه، ويحسب حساب كلماته، وصارت له خطيبة يحبّها الجميع، إلّا هو. أنا أيضاً تغيّرت. وعلى الرغم من ذلك، يسعني القول إن الضغوط التي مارسها علينا الأهل لم تكُن هي التي أرغمَتنا على التغيُّر، وإنما دويّ القنبلة التي انفجرَت أخيراً، تلك التي صنعناها أنا وإميليو وروساريو.

لم يخطر لي يوماً أن قدرتي على الغيرة قد تبلغ ذلك الحد: كان الرفض الذي قُوبِلَت به روساريو، ذلك الرفض الذي آلمني أنا أيضاً، يُغرِقها في تلك العزلة حيث كنتُ أنا جزيرتها الوحيدة. والآن أفكّر أن الشدائد هي التي جمعَت بيننا دائماً. ذلك هو الشعور الذي يراودني في هذا المستشفى، بينما هي في الداخل، تفتّش عن معجزة أخيرة، في حين أشعر بالتميّز لأني أنا مرافقها الوحيد.

«لقد أصيبَت بالرصاص في كل أنحاء جسدها»، قال لي أحد الأطباء المناوبين، حين طلبتُ منه أن يترجم التشخيص.

- «وماذا الآن؟».

- «لا بدّ من الانتظار. إنهم يبذلون كل ما في وسعهم».

في عينَي العجوز الجالس على الأريكة المقابلة، رأيتُ لوعة الهواجس التي استحوذَت عليّ. في تلك الساعة، بقيتُ وإياه وحدنا، ومع أنّ الرجل أخذ يهوّم طوال الوقت، فما كاد الطبيب يطلعني على التقرير حتى التقيت بنظرته اليقظة. قال العجوز: «تحلَّ بالإيمان، فكلّ شيء ممكن».



t.me/qurssan

شعرتُ بأنه يترقّب قيامة روساريو هو الآخر، وبأنه يحبّها بقدر ما أحببتُها، ربما كان واحداً من أقربائها، ربما كان أباها المجهول. لم تسمح لي حالتي المعنوية بتجاذب أطراف الحديث. ومع ذلك، فقد نما إلى علمي في وقت لاحق أن ابن الرجل العجوز، الذي كان هو وروساريو متقاربَيْن في العمر، قد جيء به إلى المستشفى مصاباً بالرصاص في كل أنحاء جسده هو الآخر. فلم يبقَ للعجوز سوى التحلّي بالإيمان والانتظار، مثله كمثلي. سألتُه: «كم الساعة الآن؟»، فنظر من فوقي إلى الساعة المُعلّقة على الجدار وأجاب: «الرابعة والنصف».

شعرَت روساريو بالنفور الذي أضمرَته لها أم إميليو منذ الدقيقة الأولى. لم تبذل السيدة أدنى جهد لمداراة الأمر. وبفعل التوتّر، ذهبَت نوايا روساريو الحسنة أدراج الريح. كان ذلك حين خطر لإميليو أن يدعوها إلى عرس إحدى بنات عمومته، بحسب اعتقادي، وهي الدعوة التي كان يُفترَض أن الغرض منها تقديم روساريو لأسرته أخيراً. حكَت لي روساريو قائلةً: «رأتني السيدة، فلوَت أنفها وكأن رائحتي كريهة».

حيّتها قائلةً: «كيف حالكِ يا آنسة؟»، ولم تزِد على ذلك حرفاً حتى انصرفَت. أخبرني إميليو لاحقاً أن أمه صبّت على رأسه كل ما كتمَته خلال الحفل، من دون أن تتوقّف لحظةً تلتقط فيها أنفاسها. فلم تبقَ شتيمة واحدة إلّا ورمَت بها روساريو. أما الأخيرة، فأخذَت تردّد في غير كلل: «العاهرة العجوز! كل هذا وهي لم تقُل لي شيئاً! لأنها لو فعلَت لقطعت لسانها بسكّين اللحم!».

كانت كلما استحضرَت ذكرى تلك الليلة اغرورقَت عيناها بالدموع، وكلما جاء ذكر تلك السيدة كزّت على أسنانها. غابت، ولم تعُد للحديث إلى إميليو منذ تلك الليلة. استقلّت السيارة وهي تبكي غضباً، ولم تسمح



t.me/qurssan

له بأن يصحبها إلى بيتها. وفي منتصف الطريق، تركَته واستقلّت سيارة أجرة. ما كادت تبلغ البيت حتى اتّصلَت بي. قالت وهي تكاد تعجز عن الكلام: «لو أنك رأيتهم يا صديقي! وأنا التي دفعتُ ثمنَ قلبي لشراء ثوب جديد من المتجر الذي تشتري منه العجوز ثيابها! وذهبتُ لتصفيف شعري حيث تصفّف العجوز شعرها، فكنتُ في أبهى حلّة، لو أنك رأيتَني يا صديقي! كنتُ أبدو كالملكات. قرّرتُ الإقلال من الحديث حتى لا أفسد الأمر، ورحتُ أتدرّب أمام المرآة على ضحكة في غاية اللطف، بل إني علّقتُ الدلّايات التي تحمل صور القديسين بسلسلة من أرهف ما يكون، خلاصة القول إنك لو رأيتني لما عرفتني، غير أني ما كدتُ أصل حتى أخذَت ابنة العاهرة ترمقني وكأني قطعة من الخراء، فقُضِي الأمر، ولم تنفعني لا تصفيفة الشعر، ولا الضحكة اللطيفة، ولا الحلي، بل إني رحتُ أتلعثم كالبلهاء، وانسكب مني النبيذ، وتساقط مني الطعام على المفرش، وغصَّ حلقي بالأرز فلم أقوَ على كبح السعال حتى انصرفت. أخذ الجميع يسألني: وأنتِ في أيّ مجال تعملين؟ وماذا عن أبيكِ وأمك؟ وأين تدرسين؟ لا بدافع المودة وإنما لينغّصوا عيشي، كل هذا الخراء، وكأني موضوع الحديث الوحيد».

- «وماذا عن إميليو؟».

- «اضطُرّ إلى الردّ بدلاً مني، لأني لم أكُن مُهيّأة لشيء من ذلك، بل غصَّ حلقي بالطعام إلى درجة أعجزَتني عن فتح فمي، لك أن تتخيّل، ولكن أسوأ ما في الأمر أننا ما كدنا نفرغ من تناول الطعام حتى كانت العجوز أول من قام عن المائدة، وغادرت الحفل من دون أن تنبس بكلمة واحدة، ثم أخذ الحضور جميعاً يستأذنون، ويزعمون بأنهم مُضطرّون إلى الذهاب، وخلال ثلاث دقائق لم يبقَ منهم أحد، لم يبقَ على المائدة غيري أنا وإميليو».



t.me/qurssan

كانت تُودِع ألمها في كلّ كلمة، وتقطع الحديث من آن إلى آخر حتى تكيل السباب لأمّ تلك السيدة، وتسيء إلى الأثرياء والفقراء وإلى الرّب ذاته، ثم تلتقط خيط الحكاية من جديد. قالت إنها سوف تتخلّى عن إميليو، فليس هناك ما يمكن عمله، وقالت إنهما مختلفَيْن جدّاً، وكلاهما من عالَم مختلف، وقالت إنها لا تعلم في أي لحظة خطر لها الانضمام إلينا، فظننتُ أني على وشك الموت حين شملَتني أنا الآخر بكلامها.

ولكن، إن جاز اعتبار ما جرى في ميديِّين التي أعرفها مطراً، فما وقع في ميديّين التي تعرفها روساريو سيول غزيرة. إذ يبدو أن دونيا روبي قد استقبلَتها بأسوأ مما فعلَت أم إميليو. في البدء لم نعرف لذلك سبباً، علماً أن دونيا روبي لا تملك ما تخسره، ثم فهمنا بعد ذلك أنها توقّعَت ما سوف تلقاه روساريو، وسألَتها: «قولي لي، ماذا تفعلين في مثل هذه الأماكن؟».

أجابتها روساريو: «الأَولى بكِ أن تسأليه لماذا يواعدني».

قالت السيدة: «لا بدّ أنه لا يريد سوى التهام جسدكِ».

فأجابَت ابنتها: «إذاً، فدعيه يلتهمه!».

حذّرَتها دونيا روبي من كلّ ما قد يحدث لها مع «أولئك الناس»، وتنبّأت لها بأن يردّوها إلى الشارع مثل الكلاب، أشدّ فقراً وهواناً من أيّ امرأة سواها، بمُجرّد أن ينالوا منها غرضهم. ما عادت روساريو تدافع عن نفسها، بل أطرقَت وراحت تنصت إلى أمها ريثما تنتهي من تعنيفها. ثم رأتها وقد سكتَت هي الأخرى، فسألَتها: «هل انتهيتِ؟».

أشعلَت دونيا روبي سيجارة من دون أن ترفع عينَيْها عنها. فقامت روساريو، وبحثَت عن حقيبتها، ثم توجّهَت إلى الباب المفضي إلى الشارع. وقبل أن توصد الباب، وجدَت أمها مُتّسعاً من الوقت لتقول: «أولئك الناس ليسوا لك يا بنيتي».



t.me/qurssan

قالت إن أمها كانت تشعر نحوها بالغيرة، وقد أمضَت الأخيرة حياتها كاملة في البحث عن رجل ثري ومغازلة مستخدميها، قالت إنها لا تملك السلطة الأخلاقية لمحاكمة ابنتها، لا سيما الآن وروساريو ما عادت تسكن معها، دع عنك أن تفعل وقد أصبح مظهرها يدعو للارتياب، بشعرها المصبوغ باللون الأصفر، وثيابها الضيقة التي تليق بابنتها روساريو. كانت تسخر من أمها قائلةً: «ما زالت دونيا روبي تظنّ نفسها في الخامسة عشرة. من يدري فيما ورّطَت نفسها؟».

وفي النهاية صدق ما تنبّأت به كلٌّ من السيدتَيْن، على الرغم من الجهد الكبير الذي بذله إميليو وروساريو من أجل استمرار العلاقة. ولكني أشدّد على أن السبب لم يكُن لا التعنيف ولا الضغط، بل نحن، أجل، أعني ثلاثتنا، لأن تلك العلاقة قامت على ثلاثة أعمدة، كما هو الحال دوماً: الروح، والجسد، والعقل. فساهم كل منا بالقليل من كل شيء. وتهاوى ثلاثتنا في آن واحد، فما عدنا نقوى على النهوض بحمل ما بنيناه بأيدينا. ولم يتسنَّ لهما الإفلات من تلك العبارة المقيتة: «سبق أن قلت لك».

– «سبق أن حذّرتك، إميليو».

– «سبق أن قلت لكِ، روساريو».

أما أنا، فكانت الحياة هي التي وبّخَتني. بَيْد أني لم أتلقَّ التوبيخ في النهاية وحسب مثلهما، بل إني كنتُ أتلقّاه كلما نظرتُ إلى عينَيّ روساريو. لطالما سمعتُ عبارة «سبق أن قلت لك»، كلما رأيتُها تخرج مع إميليو، ومن أجل إميليو، كلما سمعتُها تقول إنها تحبّه. لطالما سمعتُ عبارة «سبق أن حذّرتك» كلما تناهى إليّ صوتهما وهما يداعبان أحدهما الآخر في خلوتهما، وكلما تخيّلتُ نهايةَ مداعباتهما متى نبّهني إلى ذلك الصمتُ المفاجئ الذي يُخمِد ضحكاتهما وصرير الفراش والآهات اللاإرادية التي تنطلق من آنٍ إلى آخر.



t.me/qurssan

«ماذا كنتَ تفعل؟»، سألَتني روساريو.

كانت تخرج بقميص طويل، لا ترتدي تحته شيئاً، بتلك الابتسامة التي ترتسم على الوجه بعد لقاء حميمي شهيّ. فقلتُ لها كاذباً: «أقرأ».

كانت تخرج لتدخين سيجارة لأن إميليو يمقت التدخين في حجرته، فلم أفهم كيف يمكن حرمان روساريو من أيّ شيء بعد مطارحتها الغرام. سألَتني مُجدّداً: «تقرأ؟ وماذا تقرأ؟».

كنتُ أسمح لها بالتدخين في حجرتي. لم تطلب مني الإذن قطّ، غير أني كنتُ أسمح لها بذلك. وعَبْر الباب الموارب كنتُ أرى إميليو وهو لا يزال عارياً، مستلقياً على الفراش، يتذوّق آخر رجفات اللقاء الحميمي. أما روساريو فكانت تجلس على فراشي، وهي لا ترتدي من الثياب إلّا قميصها، فتتكئ بظهرها على الجدار، ثم تعقد ساقَيْها فوق الفراش، وتنفث سحائب الدخان ببطء شديد، وقطرات العرق الدقيقة لا تزال على شفتَيْها. كانت تلقي عليّ أي سؤال ساذج، فلا أكلّف نفسي حتى الإجابة عنه في بعض الأحيان، علماً مني أنها لن تسمعني. ما كانت تحدّثني في كل مرة. بل إنها في أغلب الأحيان كانت تدخّن سيجارتها في صمت ثم تذهب للاغتسال. أما أنا، فكنتُ كلما رأيتُها خارجةً، بحثتُ عن ذلك الموضع الذي جلسَت فوقه من الملاءة، حيث أجد الهدية الهائلة التي تتركها من أجلي في كل مرة: تلك البقعة الرطبة التي ألصق بها أنفي، وفمي، حتى أتعرّف بمذاق روساريو من الداخل.



t.me/qurssan

# 6

«هل لاحظت أن "المَوْت" و"البَخْت" على وزن واحد؟»، سألَتني روساريو.

كنتُ مولعاً بالشعر في تلك الأيام، ولأنها فضولية، فقد أطلعتُها على شيء من قراءاتي. كانت تربط كل شيء بالموت، حتى تفسير أشعاري.

قالت روساريو: «لا بدّ أن هذه الأشياء تصلح للقراءة بعد الماريجوانا»، فراقَ لنا اقتراحها.

مررنا بفترة كُنّا نختلي فيها بأنفسنا طوال أيام الآحاد، فيعكف ثلاثتنا على تدخين الماريجوانا وقراءة الشعر. كُنّا نجد عبارات تحدونا إلى الظنّ بأننا قد فهمنا العالَم، وأخرى تدور برؤوسنا وتُخرِس ألسنتنا، وأخرى تُغرِقنا في القهقهة، وأخرى تجعلنا نحسّ بجوعٍ رهيب. كانت تلك هي الأوقات الهادئة، أوقات الموسيقا، والقراءة، وبعض المُخدّرات لتغيير المزاج. غير أننا مررنا بآحاد أخرى وخلوات أخرى ما زلتُ لا أفهم كيف خرجنا منها سالمين. لم يقتصر الأمر على ثلاثتنا في تلك المرات، بل كان ينضمّ إلينا جمعٌ غريب. قال لي إميليو شارحاً: «إنهم أصدقاء روساريو».

لم تكُن بنا حاجة إلى النظر في المرآة لنرى أنهم يختلفون عنا، وإن



t.me/qurssan

انتهَت بنا الحال وقد صرنا مثلهم. كانوا يحلقون رؤوسهم، تاركين ضفائر طويلة غير متساوية تنسدل من أقفيتهم، ويرتدون أقمصة أكبر من مقاسهم بثلاث مرات، تصل إلى فوق الركبة قليلاً، وسراويل جينز ملتصقة بالجسد، يُطلَق عليها «الأنابيب». وكان الناظر إلى الأسفل يجد أحذية رياضية تنطلق منها أضواء الفوسفور والنيون. لطالما رأيتُهم من بعيد، فلم أتمكّن من ملاحظة التفاصيل قط. أما الآن وقد تسلّلوا إلى شقة روساريو، بدأتُ أراقبهم بدقة، وبكثير من الانتباه. وشرعتُ أقلّدهم، ابتداءً بالشعر، الذي تركناه قصيراً جدّاً، وأسدلنا ضفائر أقل جذباً للانتباه. ثم وضعنا الأساور حول معاصمنا وحشرنا جسدَيْنا في سروالي جينز عتيقَيْن. في الحفلات الصاخبة كُنّا نتبادل الأقمصة وإياهم، وهكذا انتهَت في خزانتي ثياب فييرّوتيبيو وتشارلي وبيبيسيتو وماني وغيرهم. أما چونيفي، فأهداني واحدة من دلّاياته، في نوبة من نوبات المودّة، أهداني الدلّاية التي كان يعلّقها على صدره، ولهذا سقط قتيلاً، طبقاً لما ذهبَت إليه روساريو، التي قالت إن ذلك هو الموضع الذي اخترقَته الرصاصة. ليلتئذٍ قال لي چونيفي: «روساريو تحدّثني عنك كثيراً يا فتى. تقول إنك رجل رائع بحق»، ثم إنه فتح قميصه وجذب الدلّاية. «لكل من تحبّهم روساريو مكانة مميزة عندي يا فتى»، ثم خلعها بحرصٍ بالغ، وكأنها مُعلّقة بسلسلة من الذهب. «إليك يا رجل، ضعها حول عنقك، وحافظ عليها من أجلي، عسى ألّا يقع شيء لعزيزتي روساريو. يبدو على وجهك أنك قادر على تحمّل المسؤولية يا رجل، إليك، إنه "الفتى يسوع"، اعتنِ به وبها»، ثم أحاط وجهي بكلتا يدَيْه، وقرص وجنتَي، وطبع قبلة على فمي. «هلّا أخذناً نفساً آخر، أم ماذا؟».

بعد مقتله أعطيتُ الدلّاية لروساريو. خلتُ أنها سوف تلقي عليّ باللائمة، غير أنها لم تقُل شيئاً، وإنما طبعَت قبلة على الدلّاية، وعلّقَتها،



t.me/qurssan

ورسمَت علامة الصليب. كانت تلك هي الفترة التي غابت فيها عن الأنظار، بعد جنازة أخيها، عندما زاد وزنها مرة أخرى، ولكني حين تأمّلتُ ما جرى في وقت لاحق، أدركتُ أنها قد نالت ثأرها، ما يفسّر أرطالها الزائدة والطيبة التي قابلَتني بها. لم تلُمني إلّا على أمرٍ واحد فحسب: «لو أنك أعطيتَني الدلّاية من قبل، لدفنتُها مع جثمانه».

وحده فيرني كان يتغيّب عن حفلات روساريو، ما دام إميليو حاضراً. أو ربما كان إميليو يتغيّب كلما حضر فيرني. كان الواصل أولاً يبقى، أما الآخر فيتعلّل بالأعذار. كان فيرني يطلب منها أن تبلغ إميليو: «قولي لابن العاهرة هذا إن رائحة الفورمول بدأت تفوح من جثته»، فيطلب منها إميليو أن تبلغ فيرني: «قولي لابن العاهرة هذا إن رائحتي يتمنّاها أمثاله».

في البدء كانت تندلع المشاكسات بين أنصار فيرني والمتعاطفين مع روساريو، إذ لم يكُن لإميليو من يشفع له سواي، وأنا لن أشتبك معهم. في حياته، كان چونيفي هو الذي يفرض سيطرته على الموقف قائلاً: «لا شأن لأحد بما يجري، دعوا الصغيرة تقرّر بنفسها».

ولأن الصغيرة لم تستقرّ على قرار يوماً، فكلما أُقيمَت حفلة -إن جازت التسمية- إما حضرها إميليو، وإما فيرني. ولكن ربما كان فيرني أقل حضوراً.

كان إميليو يشكو إلى روساريو قائلاً: «ولكنّي حبيبك»، فتجيبه: «أجل. ولكن فيرني هو فيرني».

وعلى الرغم من ذلك، فكثيرة هي المرات التي لم يرافقها فيها أيٌّ منهما، إذ لم يكُن يُسمَح لهما بمرافقتها. وبذلك أعني المئات من المرات التي ذهبَت فيها روساريو مع أشدّ الأشداء، أولئك الذين أعطوها كل شيء، الذين أعطوها النقود، فامتلكوا رفاهية الفوز بها فوزاً غير مشروط. كانت



t.me/qurssan

تذهب من دون أن تنبّهنا، فندرك أنها برفقتهم إذا مرَّ يومان من دون أن تصلنا أخبارها. كان المرء يعرف تحرّكات روساريو بالنظر إلى وجه إميليو، الذي كان كلما غابَت روساريو قال: «الآن انتهى الأمر بحق، انتهى بحق».

- «في كل مرة تقول...».

وكان يقاطعني: «الآن سترى بحق. الآن سألقي بكلّ شيء إلى الجحيم».

ولكن لم يسعه الوفاء بكلمته قط. فلطالما عادت إليه روساريو، حلوة كالعسل، مُحمّلة بالنقود، تتحرّق شوقاً إلى صغيرها الوسيم. كانت في أول الأمر تتّصل بي أنا لجسّ النبض أولاً، فأخبرها بما جرى: «قال لي إن الأمر انتهى بحق هذه المرة».

- «مرة أخرى؟».

- «كلّا. هذه المرة يقول إن الأمر قد انتهى بحق».

كانت روساريو تظهر أمامه حاملةً هدية من أجله، وترتدي ثياب الأعياد، وتبدو أجمل من أي يوم مضى، على أهبة الاختلاء به طوال الوقت اللازم حتى يرضى عنها. كنتُ أراها فأتساءل: «روساريو، ما الحاجة إلى هدايا أخرى؟ فالهدية أنتِ».

كانت تحكي لي أن العودة إلى إميليو تشبه تناول كأسٍ من الماء المُثلّج في أوج الحرّ، وتقول: «ليس لك أن تتخيّل المستنقع الذي جئتُ منه».

وهي برفقتهم، كانت تفتقد أكثر ما يعجبها في إميليو، بطنه المشدود، وردفه المحكم، ودغدغة لحيته أيام الآحاد، وأسنانه الكبيرة الناصعة، وكل ما عجزوا هم عن تقديمه إليها، مهما بلغوا من الثراء.

- «ولكن إميليو لا يملك أن يعطيني أشياء أخرى يا صديقي».



t.me/qurssan

وماذا عني؟ أنا أيضاً كان بطني مشدوداً، وردفي مُحكَماً، وأسناني كبيرة، وقلبي نقيّاً، يصلح لحبّها دون سواها.

كانت تقول: «لا أحد، لا أحد يملك أن يعطيني ما يعطونني هم».

وكانت محقّة في قولها. كان انتزاعها من بين أيديهم ضرباً من المحال. فكنتُ وفيرني وإميليو نرضى بالحال، ونقنع منها بالرجوع، وبالمودّة، وبطريقتها في تقسيم المودّة بيننا كما يحلو لها.

سألتُها ذات مرة: «روساريو، من هم؟».

- «أنت تعرفهم. فهم حديث الأخبار طوال اليوم».

ما كادت أبصارهم تقع على روساريو حتى رغبوا فيها لأنفسهم، شأن الجميع. ولأن الأوفر حظّاً من الثراء هو الذي يختار، فقد حصلوا عليها. قالت لي: «لقد استطاع چونيفي وفيرني الانضمام إلى "المكتب". وذلك ما يطمح إليه كلّ شابّ. فحينها لا يعود الواحد نكرة، بل يصبح في إمكانه أن يصير من الأشدّاء. في تلك الفترة أدّت الفوضى العارمة إلى ازدياد الطلب والبحث عن رؤوس العصابات تحسّباً لحملة غاشمة».

قلتُ مستفهماً: «الترجمة، من فضلك!».

- «إنها الحرب يا صديقي، الحرب. كانت الحاجة تدعو إلى الدفاع عن النفس. فصاروا يدفعون أموالاً طائلة لكل من يقتل رجل شرطة. واستطاعوا تجنيد فيرني وچونيفي. لم يكُن فيرني يتقن الرماية، على الرغم من مهارته في قيادة الدراجة البخارية، أما چونيفي فكان دقيقاً مثل النسر، يطلق الرصاصة فتصيب قلب الهدف. وبعد أن أثبت كلٌّ منهما كفاءته، حصلا على ترقية، وبدأت أمورهما تسير على خير ما يرام، وابتاعا دراجة بخارية جديدة، ومُسدّسات جديدة، وأضفنا إلى بيتنا طابقاً ثانياً. هكذا



t.me/qurssan

تنفتح شهية الواحد إلى العمل بحقّ! أصبحنا جميعاً نرغب في العمل مع أولئك الناس، الذين جنّدوني في وقت لاحق أنا أيضاً».

لم أدرِ كيف أقولها: «لا تقولي إنكِ أنتِ أيضاً قد... تعرفين ما أعنيه... رجال الشرطة».

- «كلاااا يا صديقي! ما كنتُ أصلح لهذا الغرض، فأنا لا أتقن الرماية عن بعد، ألم ترَ أن فيرني هو الذي درّبني؟ إن هذا الفيرني يخطئ حتى لو ألصق فوهة المُسدّس بالهدف. لا بدّ أن يتقن الواحد الرماية كي ينال التقدير، وإلّا فعليه بشيء آخر».

سألتُها: «إذاً، فلماذا ينال فيرلي تقدير الجميع؟».

فصوّبَت قولي: «فيرني. لأنه ماهر في قيادة الدراجة البخارية. أضف إلى ذلك أنه أنقذنا من مأزقٍ خطير ذات مرة، فلولا فيرني لوارانا التراب منذ زمن. بطبيعة الحال، كان سوء التصويب هو السبب في كل شيء. كُنّا في مواجهة مع عصابة پاپيليتو، فتفوّقنا عليهم رغم ضعف تسليحنا، وإذا واحدٌ من أفراد العصابة يقوم من بين الأموات ويبدأ في إطلاق النيران، في حين كانت ذخيرة چونيفي قد نفدَت. لم تبقَ ذخيرة إلّا في حوزة فيرني، فصرخ فيه چونيفي: «أطلق عليه النار!»، عند ذاك أطلق فيرني النار، غير أنه لم يصِبه هو، بل أصاب شخصاً آخر متوارياً خلف أجمة، فلم نرَه إلا وهو يتدحرج على الأرض ممسكاً برشّاش من طراز ميني-أوزي، تصوّر! كان في وسعه أن يمحونا جميعاً من الوجود بذلك السلاح».

سألتُها وقد استأثرَت بفضولي: «وماذا عن الآخر؟ ذلك الذي قام من بين الأموات؟».

- «الآخر؟ الآخر مات من جديد».

كنتُ مُهتمّاً بتلك الحكاية لأنها السبب في لقاء روساريو بالرؤوس



t.me/qurssan

الكبيرة، إذ كانت ترافق أخاها وحبيبها آنذاك في المهمات التي يعهد بها «المكتب» إليهما. عاودتُ سؤالها: «إذاً، فكيف وصلتِ إلى القمة؟».

- «إنها قصة طويلة يا صديقي. الأفضل أن نشرب كأساً أخرى».

كانت روساريو متى قرّرَت الكلام تشبه القطّارة. فهي ترطّب لسان الظمآن بالقطرات الكافية حتى يرى نبع الماء بعين الخيال. كانت كلماتها القليلة مُخدّراً شهيّاً يبعث على الإدمان ويبثّ في المرء لهفةً إلى معرفة المزيد. أما الشيء الجدير بالفضول فهو أني في البدء حسبتها لن تتكلّم، لأنها لم تكُن تحيّيني في اللقاءات الأولى سوى بابتسامة يتيمة. لم نعرف قطّ ما إن كانت تشعر بالسرور أو بالضجر، إن كانت تروق لها الأمكنة التي نرتادها، أو إن كانت تشعر برغبة في تناول شيء ما، فكُنّا نُضطَرّ إلى سؤالها عن كل شيء ما دمنا نرغب في معرفة رأيها. كُنّا نسأل إميليو: «كيف لا تملّ امرأة كهذه، إميليو؟ ألا ترى أنها لا تتفوّه بكلمة واحدة؟ تبدو كالخرساء»، فيجيبنا: «وماذا في ذلك! ولماذا يرغب الواحد في امرأة مُتكلّمة؟ هكذا أفضل».

مع الوقت أراقَت روساريو أولى قطراتها، ولكنها لم تفعل إلّا بعد أن عرفَت تضاريس المنطقة وألفَتها أكثر قليلاً. راحت تفتّش بين الجدد عن نظرة جديرة بالثقة، وروح تحفظ جميع أسرارها، فعثرَت عليّ أنا. لا بدّ أن العثور عليّ لم يكُن بالغ الصعوبة، وأنا الذي شعرتُ برغبة في معرفة ما يكمن وراء ذلك الصمت منذ زمن.

- «فيمَ تفكّرين، روساريو؟».

- «متى؟».

- «حين تصمتين».

- «لا أدري. ماذا عنك؟».



t.me/qurssan

لو قلتُ لها إني كنتُ أفكّر فيها دوماً... منذ أفقتُ ذات نهار على حبّها، ونذرتُ نفسي لتشييد ألف عالَم من أجلها. ألف عالَم صنعتُها من نسج رغباتي، كان الواحد منها يدوم بقدر ما يدوم الحلم، ويتهاوى على وقع الدويّ المكتوم الآتي من باب حجرتها، وآهاتها المسموعة عَبْر الجدران، وهروبها غير المُتوقّع إلى الأشدّاء في كلّ مرّة.

قلتُ لها مستفهماً: «لم تحكِ لي كيف تعرّفتِ بهم».

- «بل حكيت».

صمّمتُ على قولي: «بل إنكِ لم تحكِ لي».

كان «المكتب» قد عهد إلى فيرني وچونيفي بمهمة صعبة، ودفع لهما مبلغاً ما كانا ليجنياه على مدى سنة من العمل. كان الهدف رجل سياسة نغّص عيش السادة الذين عملا لحسابهم.

قالت روساريو: «كما تعرف، واحد من أولاد العاهرات».

- «وماذا يُدعَى؟».

- «تقصد ماذا كان يُدعَى، لأن المهمة تمّت بنجاح مشهود».

سافرَت هي وأخوها وفيرني برفقة خمسة آخرين. لم تطلعني على تفاصيل العملية قط، ربما لأنها لم تكُن مُطّلعة عليها. وعلى الرغم من ذلك، أخبرَتني بأن كل واحد منهم سافر برفقة امرأة. قالت شارحة: «كانت أعصاب الفتيان تتوتّر للغاية، فلا يتمكّن من تهدئتهم سوانا، نحن النساء. في تلك المرة اشتروا تذاكر سفر من أجلي أنا ودايسي وبعض الفاتنات اللاتي لم أكُن أعرفهن. سافر كلٌّ منا بمفرده، ووصلنا في أيام مختلفة. التقيتُ بچونيفي ودايسي وفيرني في الفندق نفسه. تظاهرنا بأننا في شهر العسل، فكان علينا أن نبدي مظاهر الحب طوال الوقت، وأنت تعلم كم أضيق بتلك الحماقات، فأنا لا يروقني معسول الكلام. لو عرف الرجال



t.me/qurssan

كم تجعلهم الرومانسية يبدون كالمُخنّثين! لهذا يعجبني إميليو، لأنه خشن كالحجر. ماذا كنتُ أقول؟».

كانت خيوط الحكاية تضيع من بين يدَيّ أنا أيضاً. في ثوانٍ معدودة، لم أعُد أدري ما العمل بكلّ هذه الكلمات التي صغتُها من أجل روساريو في مخيّلتي. كلمات الحبّ التي كنتُ أنظمها متى أويتُ إلى الفراش، تلك التي كنتُ أستعدّ لألقيها عليها يوماً تحت نور القمر، أمام الشاطئ، بتلك النبرة المُخنّثة المغرقة في الرومانسية التي كثيراً ما ضاقَت بها. وإلّا، فكيف يكون الحديث عن الحب؟

ذكّرتُها قائلاً: «كنتِ في الفندق».

فأخذت تقول وهي تبحث عن طرف خيط الحكاية: «الفندق، الفندق... تصوّر أنهم لم يسمحوا لنا بالخروج إلى الشارع ولا حتى من أجل تناول الطعام. كان الفتيان يخرجون مُبكّراً ثم يعودون في ساعة مُتأخّرة، فأذهب أنا إلى غرفة دايسي أو تأتي هي إلى غرفتي. كان الفراغ شديداً، إذ لم نفعل شيئاً بخلاف مشاهدة الأفلام وتدخين الماريجوانا وتأمّل بوغوتاه عَبْر النافذة. أما الفتيان فكانوا يَصِلُون ليلاً في حالة هياج شديد، مخمورين، فلا يخبروننا بشيء مما فعلوا، بل يتوجّهون إلى غرفهم حتى نشملهم برعايتنا. كان فيرني يصل كالمجنون، وكأنه لم يعرفني يوماً. فيأتيني مُتوتّراً إلى حدٍّ يجعله مرتخياً، ولكن قدرته على الانتصاب عادت يومَ أنجزوا المهمة».

كثيراً ما وقعتُ ضحية نفسي، إذ كنتُ أسعى لإقناع روساريو بأن تروي لي حكاياتها، فتقابلني تفاصيل أفضّل الجهل بها. كنتُ أفضّل أن أتخيّلها بنفسي في لحظاتها الحميمية.

استرسلَت في حكايتها قائلةً: «حكَت لي دايسي أن چونيفي عانى من المشكلة نفسها، وأنه كان يقضي ليله في ذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وتعاطي



t.me/qurssan

البازوكو، وأنه ما كان يغمض له جفن، بل يبقى مُتوتّراً. ذات ليلة طُلِب منا تجهيز كل شيء لأنهم في نهار اليوم التالي سوف يأخذوننا إلى بيت ريفي حيث من المزمع أن نلتقي بهم.

خطر لدايسي أن تسأل: «ومن سيأخذنا إلى هناك؟»، فأجابها چونيفي: «ليس هذا من شأنك. واكتفي بالامتثال لما آمركِ به، أفهمت؟».

تدخّلتُ أنا في الحديث بطيش ورحتُ أدافع عن دايسي. وليس لك أن تتخيّل الشجار الذي اندلع. رفع چونيفي يده ولطمني قائلاً: "أيتها المومس اللقيطة، لا أدري لماذا جئنا بكنّ وأنتن لا تحسنّ شيئاً سوى عرقلتنا". لم يرُق لفيرني أن يراني أتعرّض للضرب، طبعاً، وإذا هو يبرز مُسدّسه ويضعه في فم چونيفي ويقول: "عليك باحترام أختك، أيها الوغد، فمن تعرّض لها تعرّض لي أنا أيضاً، عليك باحترام أختك!". ثم تعالى الصياح بأشد ما يكون، حتى سمعنا طرقاً على الباب، وعند ذاك تجمّدنا مكاننا كالمشلولين، فلم ينبس أحد بكلمة ولم يحرّك ساكناً، حتى استجاب چونيفي وأشار إلينا بالدخول إلى دورة المياه، واختبأ فيرني في خزانة الثياب. أما الطارق فهدّدنا بالاتصال بالشرطة إن لم نفتح الباب، عندئذٍ اضطُرّ چونيفي إلى الردّ.

سأله مسؤول الفندق: «ماذا يجري؟»، فأجاب چونيفي: «ماذا يجري؟ لا شيء يجري هنا سيدي المدير».

عاود مسؤول الفندق سؤاله: «وماذا عن الصياح؟».

- «ماذا عن الصياح؟ لا بدّ أنه التلفزيون سيدي المدير».

- «سمعنا صوت نساء يبكين».

أوضح چونيفي: «النساء يبكين على كل شيء سيدي المدير».

غالباً ما كانت روساريو تقطع حديثها لإشعال سيجارة كلما حكَت لي



t.me/qurssan

شيئاً بتلك الجسامة. فتأخذ الأنفاس الأولى في صمت، وعيناها شاخصتان إلى نقطة لا وجود لها، عالقة في تلك الذكرى التي أرغمَتها على التدخين.

بعد هنيهة قالت: «بلغ شعورنا بالذعر حدّاً أرغمنا على الحديث بالإشارات طوال الليل. لم نعاود السؤال عن شيء، وأوينا إلى الفراش. أما الفتيان فسهرا معاً، وأخذا يعاقران الشراب. في اليوم التالي خرجا مُبكّراً للغاية، فلا أنا ولا دايسي أحسسنا بهما يغادران، وإن لاحظنا أنهما لم يناما. وفي حوالي العاشرة صباحاً، حضر شخص في شاحنة فارهة ومضى بنا إلى بيت ريفي يقع في ميلغار. ليس لك أن تتخيّل ذلك البيت الريفي يا صديقي، قصر مذهل، بما فيه من مسابح، وملاعب تنس، وخيول، ومساقط مياه، وخدم. كان يبدو أقرب إلى النادي. أما أنا ودايسي فارتدينا ثياب السباحة واستلقينا تحت أشعة الشمس. وقرابة الثانية عشرة ليلاً، ظهر الفتيان، كانا مخمورَيْن، وإن بدا عليهما السرور، فأخذا يضحكان بشدة، ويتعانقان، ويقبّلاننا، ثم إنهما طلبا المزيد من الشراب، وتعاطيا الكوكايين، وشاركا في مرح صاخب استمرّ ثلاثة أيام. كنتُ ودايسي قد أخذنا قرارنا بألّا نعاود السؤال عن شيء. وعلى الرغم من ذلك، فقد أنبأني حدسي بأنهما قد نفّذا المهمة بنجاح يا صديقي».

أشعلَت روساريو سيجارة من أخرى. في تلك المرة كان الصمت أطول، والأنفاس أبطأ، وزاغت عيناها بقدر أكبر. كانت في بعض المرات تحوّل دفة الحديث بغتةً، كما فعلَت تلك المرة، وإذا هي بدلاً من الحديث عن الرصاص تغنّي، وبدلاً من الحديث عن الموت تدلي بتعقيب عن الحرّ في مدينة ميديّين في الآونة الأخيرة. كان خير الأمور ألّا أصرّ على مواصلة الحديث، فأُضطَرّ إلى ترقّب الفصل التالي من الحكاية بصبر، حتى تقرّر البطلة أن تعود إلى خشبة المسرح.



t.me/qurssan

بعد برهة من الصمت قالت: «يا لحرارة الطقس في ميديّين هذه الأيام».

فقلتُ ما يردّده الجميع: «ميديّين على وشك أن تغدو أرضاً حارة».

وإن كان حقّاً أن «الحرارة قد ارتفعَت» في المدينة، وجثم التوجّس على أنفاسنا، وطفح بنا الكيل من كثرة القتلى، وصرنا كل يوم نفيق على دوي قنبلة تزن مئات الكيلوغرامات، تسفر عن سقوط المئات من الضحايا، ولا تترك من الأبنية إلّا هياكلها. حاولنا اعتياد الوضع، ولكن دوي الانفجار كان يؤدّي الغرض المطلوب منه، فنمسك عن الخروج من فرط الخوف. رحل الكثيرون، من هنا ومن هناك، فهرب البعض هلعاً، وفرَّ البعض الآخر خشية الثأر منهم على ما اقترفَت أيديهم. أما روساريو، فكانت الحرب عندها نشوة، حلماً يتحقّق، غرائز تتفجّر. كانت تقول: «هكذا تستحقّ الحياة أن تُعاش».

وإذا هم يقفون في مواجهتنا نحن، ويردّون علينا إعمالاً لمبدأ العين بالعين، وثأراً لتلك الأعوام التي وقفنا خلالها في مواجهتهم. وقفَت روساريو في صفّنا، أو وقفنا نحن في صفّها، فلم ندرِ أي الجانبَيْن نؤيّد، ولا سيما إميليو، أما من جهتي فلم أملك خياراً، واضطررت إلى اتّخاذ الجانب الذي لا يسعني أن أتخذ غيره، الجانب الذي يختاره القلب أبداً. وعلى الرغم من ذلك، فنحن لم ننحَزْ إلى أحد قطّ، وإنما اكتفينا بالانسياق وراء روساريو في سقوطها الحر، فقد كُنّا وإياها في الغفلة سواء، الغفلة عن السبب في ما يجري، وعن الرصاص، وعن القتلى. رحنا نتلذّذ مثلها بالأدرينالين والرذائل التي لازمَت حياتها، وكلٌّ منا يحبّها على طريقته. كُنّا كثيرين، وكلنا يبحث في المرأة نفسها عن شيء مختلف. فيرني، إميليو، أشد الأشداء، وأنا، أوفرهم وأقلهم حظّاً في فرص الفوز بها.

قالت لي ذات مرة: «لا أعرف لذلك سبباً، ولكنك مختلف عن الجميع».



t.me/qurssan

روساريو أيضاً تعلّمت كيف تعرفني، وإن لم يُجدِني ذلك نفعاً. لم تعرفني بدقة مثلما عرفتُها، بل إنها عرفَتني من خلال الاستنتاجات العفوية التي خلصَت إليها. كانت في حديثها تصف الجميع وتذكرهم، في حين تمتّعتُ أنا بذلك الامتياز الذي ضمن لي أن أكون الوحيد الذي تكشف له عن أوجه جديدة من نفسها، الوحيد الذي تطرح عليه أسئلة نابعة من القلب، الوحيد الذي تفتّش في قرارة نفسه لتجد ما لم يعطها أحد قطّ، بَيْد أن ما وجدَته بثَّ الذعر في نفسها، وإذا الخوف يغمرني وإياها تلك الليلة، الليلة الوحيدة، حين أوصدنا الباب الذي فتحناه وكأن لم نرَ ما يقبع خلفه يوماً. ليلتئذٍ قالت لي: «دعنا لا نعقّد الأمور أكثر مما تعقّدَت يا صديقي».

أطبقتُ أجفاني، التي لم يُسمَح لي بفتح شيء سواها ابتداءً من تلك اللحظة، ورحتُ أفكّر في مدى حماقتي، وأقول لنفسي إن الأوان قد فات، فليس من المعقول أن تتعقّد الأمور أكثر مما تعقّدت.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 7

تسلّل الضوء الأرجواني السقيم إلى قاعة الانتظار معلناً عن مطلع الفجر. ما زالت «مغارة الميلاد» مضاءة، وإن لم تعُد الجبال محجوبة خلف غياهب الليل. يغفو العجوز الذي يرافقني، فاغر الفم، وخيطٌ من اللعاب يسيل على قميصه. أحسستُ بأني قد غفوت أنا الآخر لحظةً، ربما لم أغفُ لما يزيد على ثوانٍ معدودة، غير أنها كانت كافية لتترك حلقي جافاً ورأسي ثقيلاً. خلَت الأروقة من الجميع. وفي صدر المكان ما زالت المُمرّضة المناوبة غارقةً في سبات عميق خلف مكتب الاستقبال. وإذا البرد يتسلّل إلى جسدي فجأة، ضممتُ ذراعَيّ إلى صدري، وخطر لي أن ذلك البرد لم يأتِ من الخارج، بل إنه تسرّب من داخلي لحظةَ انتبهتُ إلى السكون غير المعهود الذي خيّم على المستشفى.

«لقد مات الجميع»، يدور في خلدي. ولكني أدرك أن «الجميع» تشمل روساريو هي الأخرى، فأُحدِث بقدمَيّ صخباً، وأسعل، وأتأرجح على الكرسي حتى أكسر ذلك الصمت. فتح العجوز عينَيه، ومسح لعابه، نظر إليّ، وإن غالبه ثقل أجفانه، ولم يسمح له بأن يفيق من نعاسه. أحدث مقعد المُمرّضة صريراً. ما زلنا على قيد الحياة، ولا بدّ أن روساريو هي الأخرى



t.me/qurssan

ما زالت على قيد الحياة. شعرتُ برغبة تدفعني إلى الاتصال بإميليو ولكنها سرعان ما تلاشت.

«ألا تخافين الموت، روساريو؟»، سألتُها ذات مرة.

- «لا أخاف موتي أنا، ولكني أخاف موت الآخرين. ماذا عنك؟».

- «أخاف كل شيء، روساريو».

لم أدرِ ما إن كانت تعني موت ضحاياها أو موت أحبائها، إذ كنتُ أعتقد أن زيادة وزنها كلّما اقترفَت جريمة أوثق صلة بالخوف منها بالحزن على ما فقدَت. بعد أن أفقت من الصدمة التي أُصِبتُ بها حين علمتُ أن روساريو تقتل بدم بارد، شعرتُ بثقة وطمأنينة لا سبيل إلى تفسيرهما. تضاءل خوفي من الموت، لأني كنتُ برفقة الموت نفسه، من دون شك.

«أتصوّر الموت على هيئة مومس، بتنورتها القصيرة، وكعب حذائها الأحمر، وثوبها الذي بلا أكمام»، هكذا وصفَته لي روساريو.

زدتُ على قولها: «وعينَيها السوداوَيْن».

- «وكأنه يشبهني، أليس كذلك؟».

لم يزعجها أن تشبه الموت، أو تجسّده. لفترة من الزمن كانت روساريو تصبغ وجهها بالمسحوق الأبيض وشفتَيها وعينَيها بالطلاء الأسود وأجفانها باللون البنفسجي، وكأنها تعاني من الهالات السود. كما كانت تتّشح بالسواد، وترتدي قفازاً يصل حتى المرفق، وتعلّق من عنقها صليباً مقلوباً. في تلك الفترة كانت مولعة بالطقوس الشيطانية. كانت تقول: «إن الشيطان رجلٌ بحقّ».

سألتُها ماذا جرى لعذراء المعونة والطفل يسوع والقديس يهوذا تداوس. فأجابتني بأن چونيفي أخبرها بضرورة البحث عن المساعدة في



t.me/qurssan

كل مكان، لدى الأخيار والأشرار على حدٍّ سواء، فهناك مُتّسع للجميع. وأوضحَت: «ولكن چونيفي يقول إن الشيطان هو الأكثر سخاءً».

قالت إن هذه الطقوس لم تكُن شيئاً جديداً على الإطلاق، وإنها سوف تأخذنا لنرى بأنفسنا، فهي حالة رائعة من النشوة، أفضل من أي مُخدّر. سألتُها وأنا لا أداري خوفي: «ماذا؟! أتأخذيننا إلى الشيطان؟».

في حين قال إميليو: «سحقاً! لا تحسبي أني ذاهب معك».

وأردفتُ: «ولا أنا».

قالت لنا روساريو: «إنكما زوج من المُخنّثين! لقد طفح بي الكيل منكما أيها المُغفّلَيْن».

لم نذهب قطّ. ما كدتُ أسمع الحكايات التي تزعم بضرورة تناول كأس من دماء قطٍّ حتى استبعدت أي إمكانية للذهاب. زد على ذلك أننا كُنّا نسمع قصصاً أخرى في غاية الغرابة. قال لي إميليو سرّاً: «إنهم يقدّمون الأطفال قرابين أيضاً. يخطفونهم ويضعونهم على المذبح وينحرون أعناقهم ويشربون دماءهم. لهذا اختفى كل أولئك الأطفال في الآونة الأخيرة».

سألتُه: «وماذا عن قصة العذارى؟ تراها حقيقة؟».

- «أعتقد أنهم يقتلونهن حقّاً، أما كونهن عذارى فذلك ما أشكّ به».

انزعجَت روساريو من سخريتنا.

- «اضحكا أيّها المُغفّلان، اضحكا! ولكن لا تطلبا المساعدة إن وقعتما في مصيبة!».

لم يستمرّ الهوس الشيطاني طويلاً. تخلّت روساريو عن الشحوب والهالات السوداء والشفتَيْن السوداوَيْن، ونحن نكاد لا ننتبه إلى ذلك ولا نقول لها شيئاً، فعادَت إلى ألوانها المعهودة. تخلّت عن المظهر الغامض



t.me/qurssan

وعادت إلى الفوضى. لم أقوَ على كبح رغبتي في سؤالها عما كان من أمر الشيطان. فقالت: «لم تُرقني الموسيقا، فما هي إلّا ضجّة مُنفّرة كالخراء. أما أنا فيروقني لونٌ آخر من الموسيقا. الأغاني الجميلة، الغرامية، ذات الكلمات المفهومة، التي تتغنّى بأشياء رائعة».

ذلك شأنٌ لم أفهمه قط من شؤون روساريو، التضارب بين الأغاني الرومانسية التي تروقها، ومزاجها العنيف وجفائها في الحب.

- «أيّ موسيقا تعجبكِ، روساريو؟».

- «أنت تعرف، ماريا كونتشيتا، خوان غابرييل، پالوما، پيراليس، أولئك الرائعون الذين يغنّون وأيديهم على صدورهم وعيونهم مغمضة».

ما لم تخبرنا به روساريو هو السبب الآخر الذي جعلها تملّ أتباع الشيطان، غير أننا اكتشفناه حين أخبرنا به غاينيتو في إحدى الحفلات الصاخبة، واقعاً تحت تأثير المُخدّرات التي لعبَت برأسه تماماً: «الصغيرة قتلَت أحدَ أتباع الطائفة. ألم تعرفا بما جرى؟ كنتُ أحسب الخبر قد بلغ الجميع. كُنّا نلعب تلك اللعبة حيث نتعرّى ويلهو الكل مع الكل. كُنّا قد تعاطينا خمس جرعات بالفعل، وبلغنا حالة مزاجية هائلة، ولكن الصغيرة لم يُرقها أن يأخذها بالقوة ذلك الرجل الذي حاصرها وضغط عليها بركبته في قسوة، ماذا جرى حينئذٍ؟ كنتُ أتابع كل شيء، تركَت الصغيرة نفسها فجأة، وصارت وديعة، أتفهمان ما أعني؟ وكأن الأمر بدأ يروق لها، فأخذَت تقبّل الرجل وتركَته يتحسّسها بقوة، وفجأة، طاخ! سمعنا دويّ رصاصة مكتومة، جاء دويّها غريباً جدّاً، غريباً جدّاً، وبالطبع بدأ الرجل ينهار، غارقاً في الدماء، حتى إنه لوّث بدمائه الثياب الداخلية للصغيرة، أتفهمان قصدي؟ أما هي فدفعَته بقدمها وقالت له شيئاً لا أذكره، ثم أُصِبنا جميعاً بالارتخاء، ونحن عُراة، في حين لم تبالِ روساريو، بل وضعَت المُسدّس في حقيبتها، وارتدَت ثيابها، وذهبَت من دون وداع، فبقينا جميعاً



t.me/qurssan

مشدوهين لا ندري من أين جاءت بالمُسدّس، فنظرتُ إلى چونيفي وقلتُ له: "هذه الصغيرة تعرف كيف تدافع عن نفسها"».

سأله چونيفي: «وماذا عن ابن العاهرة هذا؟ ماذا فعل بالصغيرة؟ قُل لي حتى أقتله من جديد».

قال غاييتو: «هدّئ من نفسك يا رجل. فالصغيرة تكفّلَت بكلّ شيء، ولكن لماذا لا نستغلّ دمه، فأنا عطشان».

- «دم أولاد العاهرات يبدو لي مُنفّراً».

أما روساريو فأخبرَتنا في وقت لاحق بأن الأمر برمّته أكذوبة اختلقها غاييتو، وبأن الموسيقا هي السبب الوحيد الذي دفعها إلى التخلّي عن تلك الطائفة، وطلبَت منا سؤال أخيها إن لم نصدّقها، ولكننا لم نعرف بالقصة إلّا بعد مقتل أخيها. فأبرزَت من جعبتها دليلاً ثانياً على براءتها: «هل رأيتما وزني يزيد بعدها؟».

كُنّا نحتار في أمر روساريو أكثر فأكثر. بدأت تُنسَج حولها الحكايات، فبات من المستحيل أن نعرف أيّها حقيقي، إذ لم تكُن الحكايات المُختلَقة تختلف عن تلك الواقعية كثيراً، وكان اختفاء روساريو المُتكرّر وغموضها يحملان على الاعتقاد بأن كل حكاياتها ممكنة. وإذا روساريو تغدو معبودة أحياء ميديّين. فكانت تطالعنا على الجدران كتابات مثل: «روساريو المقصّ، الفتاة الساخنة»، أو «روساريو م.، استأصلي خصيتي بقبلاتك»، أو «روساريو المقصّ لمنصب الرئيس، وپابلو إسكوبار(*) لمنصب نائب

(*) پابلو إسكوبار (1949-1993): مُهرّب المخدّرات الكولومبي ذائع الصيت الذي أسّس وأدار ما عُرِف باسم «كارتِل ميديّين»، المنظمة الإجرامية المسؤولة عن تهريب المخدّرات من أميركا الجنوبية إلى الولايات المتحدة الأميركية. وقد تحقّق لپابلو إسكوبار من السطوة والثراء ما جعله صاحب إمبراطورية إجرامية واسعة النفوذ، وموضوع الكثير من الأعمال الفنية والحكايات والأساطير. (المترجم).



t.me/qurssan

الرئيس». وصارت البنات يُرِدن التشبّه بها، بل وسمعنا عن بنات كثيرات أُطلِقَت عليهن أسماء مثل ماريا دل روساريو، وكلاوديا روساريو، وليدي روساريو، كما حدّثَتنا روساريو بنفسها ذات يوم عن بنت أُطلِق عليها اسم أمپارو روساريو. ومثلها كمثل السادة الذين عملَت لحسابهم، باتت قصتها مزيجاً من الواقع والخيال. بل إني، وأنا الذي عرفتُ منعطفات حياتها، صرتُ أحار في تلك النسخ الوافدة من الخارج.

- «إميليو، أسمعت ما تتناقله الألسنة؟».

وكان يجيبني بقوله: «لا تقُل لي شيئاً يا رجل، أكاد أُجَنّ».

تسلّلَت إلى محيطنا حكايات عن روساريو لا يمكن التحقّق من صحتها، فيها شذرة من الواقع، أما البقية فكانت تضيفها الألسنة وهي تتناقل الحكاية، وفق حاجة راويها. كان بعض حكاياتها يشملنا. غير أني سمعتُ أموراً بلغَت من الكثرة حدّاً أعجزني عن جمعها وسردها على روساريو، وهي التي كانت متعتها بما يُقال عنها لا تفوقها متعة.

- «احكِ لي يا صديقي، ماذا يقولون عني أيضاً؟».

- «إنكِ قتلتِ مئتين، وإن لكِ أضراساً من ذهب، وإنكِ تتقاضين مليون بيزو لقاء المضاجعة الواحدة، وإنكِ تحبّين النساء أيضاً، وإنكِ تتبوّلين واقفةً، وإنك أجريتِ عملية تجميل في نهديك ووضعتِ أردافاً صناعية، وإنكِ تواعدين ذلك الذي نعرفه جميعاً، وإنكِ رجل، وإن لكِ من الشيطان ابناً، وإنكِ زعيمة سائر القتلة في ميديّين، وإنكِ غارقة في النقود حتى أذنَيْك، وإنكِ تأمرين بأن يُحلَق رأس من لا تروق لكِ من النساء، وإنكِ تضاجعينني وإميليو في آن واحد... باختصار... أيبدو لكِ هذا قليلاً؟ ماذا لو أن كل ما قيل حقيقة؟».

- «ليس كل ما قيل حقيقة، بل نصفه».



t.me/qurssan

تمنّت لو كان كل ما قيل حقيقة، وأنا أيضاً. لأن موقعي جاء في النصف المُستبعَد، حيث الحكايات التي لم تجرِ قط، مع ابن الشيطان... كذب، فما كان ذلك في وسع روساريو. جاء موقعي مع النهدَيْن والأرداف الصناعية... كذب، لأني لمستُها، مرة وحيدة، ليلة وحيدة، فلم ألمس ما يفوقها واقعية، أو مادية، أو جمالاً، لا من قبل ولا من بعد. جاء موقعي مع الأقاويل التي ادّعَت أن روساريو رجل... كذب، فليس هنالك من تضاهيها أنوثةً.

- «وماذا يقولون أيضاً يا صديقي؟ احكِ لي المزيد».

- «حماقات خالصة. تصوّري، يقولون إني واقع في حبّك».

- «ها! ما عادوا يعرفون أي قصص يختلقون».

قتلَتني بكلماتها. فقلتُ محتضراً: «تصوّري!».

الحبّ يفتك بالمرء، ويرهبه، ويحطّ من قدره، ويمرّغه في الوحل، ويخدّره! ذات مرة، بعد محادثة تشبه تلك التي ذكرتُها لتوي، ذهبتُ إلى دورة المياه في الديسكو، وحبستُ نفسي، ورحتُ أصفع وجهي حتى علَته حمرة. «خذ! لأنك مُغفّل. خذ! لأنك مُخنّث. خذ! لأنك جبان كالأرانب». فكنتُ كلما صفعتُ نفسي اشتدّ غضبي تجاه ذاتي. ثم تفاقم شعوري بالغباء حين اضطررت إلى التمهّل ريثما تزول الحمرة التي تركَتها الصفعات على وجهي حتى أتمكّن من الخروج. بل إني قضيتُ قرابة أسبوعَيْن وأنا شبه فاغر الفم بسبب الإصابة التي أحدثتُها في فكّي. أقسمتُ على استجماع شجاعتي ومصارحتها بمشاعري، ولكني كثيراً ما حبستُ نفسي بعد ذلك في دورة المياه، حيث كنتُ أصفع وجهي وأتدرّب على الكلمات التي سأقولها متى اعترفتُ لها بحبّي:

«روساريو، أنا واقع في حبّكِ».

«روساريو، أريد أن أعترف لك بشيء منذ أمد بعيد».



t.me/qurssan

«روساريو، احزري من وقع في حبّكِ».

غير أني لم أقُل لها كلمة واحدة مما سبق، ولا من آلاف الكلمات الأخرى التي أعددتُها. بل كنتُ أعود محبطاً، وأصفع نفسي أمام المرآة، الوحيدة التي سمعَتني أبوح بتلك الأمور.

«هل تتعاطى الكوكايين؟»، سألني إميليو.

- «كلا، ولكن لماذا؟».

- «زياراتك المريبة إلى دورة المياه».

قلتُ له: «أتبوّل كثيراً».

- «وماذا عن تلك الحمرة على وجنتَيْك؟».

لم أفهم يوماً كيف لم ينتبه أحد إلى الأمر، لا هي ولا غيرها. لم تذهب شكوك إميليو إلى أبعد من بضعة أسئلة ساذجة. أما هي، فلو عرفَت شيئاً لما أبقَت على الألفة والثقة اللتَيْن ظلّت تشعر بهما نحوي دائماً. كنتُ موقناً أن الجميع يعرف، لأن الحب ملموس. ولهذا السبب ظلّت الآمال تراودني دائماً، لأني لم ألمح روساريو يوماً وهي تنظر إلى إميليو، أو فيرني، أو أي شخص كان، مثلما كنتُ أنظر إليها، كانت تعود بعد رفقة أشد الأشداء فلا ألمح في عينَيْها أدنى أثرٍ للحبّ.

كنتُ متى داهمَتني الشكوك أعاود سؤالها، مُفتّشاً في ماضيها عن جمرةٍ تشي بقدرتها على الحب.

- «روساريو، هل وقعتِ في الحبّ يوماً؟».



t.me/qurssan

# 8

كان إميليو قد أخبرني بأنه سوف يقدّمني إلى امرأة حياته: روساريو. لم أصدّقه آنذاك، فهو يقول الشيء نفسه كل مرة. في تلك الأيام دفعتني امتحانات منتصف الفصل الدراسي، وقصة حب خائبة، إلى الابتعاد عن الحفلات الصاخبة التي طالما جمعَتنا. لم يكُن غريباً أن يدفعني ذلك إلى الاختلاء بنفسي، فلطالما شقّ عليّ كلٌّ من الحبّ والدراسة. وإن كنتُ كلما تعافى قلبي وتقديري الدراسي عدتُ إلى البحث الليلي في الديسكو، محاولاً كشف طلاسم العيون، عيون المُرشّحات الجديدات اللاتي يُحتمَل أن يشغلن قلبي، مستعيناً بالموسيقا والكحول على استجماع شجاعتي، ولكن سرعان ما ينفطر قلبي من جديد، في أغلب الأحوال، فأعود إلى الاختلاء بنفسي حتى أنتشل تقديري الدراسي من الحبر الأحمر، وأتعافى من الحب اللعين. هكذا كانت الحال دوماً، حتى جاءت روساريو.

قال لي إميليو: «أنت تعرفها بالفعل، إنها من أولئك اللاتي يجلسن في الطابق العلوي».

– «ماذا قلتَ إنها تُدعَى؟».

– «روساريو. لقد رأيتَها بنفسك».

– «روساريو ماذا؟».



t.me/qurssan

- «روساريو... لا أذكر».

رحتُ أفتّش في ذهني عن فتاة من محيطنا، ولذا عجبتُ حين لم أذكرها. أضف إلى ذلك أن روّاد تلك الأمكنة لا يتغيّرون في خاتمة المطاف. ولكن بعد وقت قصير، حين تعرّفتُ بها أخيراً، أدركتُ السبب الذي جعلني لا أذكرها. أشار إليها إميليو بيده. كانت ترقص وحيدة في الطابق العلوي الذي يشغلونه دوماً، فلقد خُصّص لهم أفضل مكان في الديسكو، الآن وقد صاروا أثرى منا، وربما كان السبب أنهم لم ينسوا عادتهم القديمة يوماً، عادة النظر إلى المدينة الأخرى من فوق. ومن بين الأدخنة والأضواء الوامضة، من بين خيوط الضباب الصناعي، من بين أجمة الأذرع المتمايلة على إيقاع الموسيقا، انبثقَت روساريو وكأنها فينوس مستقبلية، وقد انتعلَت حذاء أسود يبلغ ركبتَيْها، له كعب عالٍ يرفعها فوق منصة الرقص، وارتدَت تنورة قصيرة مُفضّضة، وقميصاً أخضر فسفوريّاً، بلا أكمام، يكشف عن بطنها. كانت بشرتها مُطعّمةً بالقرفة، وشعرها أسود، وأسنانها بيضاء، وشفتاها مكتنزتَيْن. أما عيناها فكان عليّ أن أرسمهما في مخيلتي، إذ راحت روساريو ترقص مغمضة العينَيْن، لئلّا ينتزعها أحد من حكايتها، لئلّا تفلت منها الموسيقا إن تشتّت ذهنها، أو ربما كانت تغمض عينَيْها لئلّا ترى دزينة الصعاليك الذين يظنّ كلٌّ منهم أنها ملك له، وقد حاصروها في حلقة لا أدري كيف تمكّن إميليو من اختراقها.

قال لي إميليو: «أنت لم ترَ شيئاً بعد، تصوّر أنها لا تذهب إلى دورة المياه إلّا ومعها رجل يحرسها».

- «إذاً، فكيف تعرّفتَ بها؟».

- «في البدء تبادلنا النظرات، مرة تلو أخرى، كنتُ ألتفتُ إليها فأجدها تنظر إليّ، وكانت تلتفت إليّ فتضبطني أفعل بالمثل، ثم انطلقنا ضاحكَيْن،



t.me/qurssan

ورحنا ننظر أحدنا إلى الآخر ونضحك، بعد ذلك ذهبَت إلى دورة المياه، ممضيتُ في أثرها، غير أني اصطدمتُ أولاً بذلك السفّاح الذي ما كان بتركها بلا حماية».

- «وماذا بعد؟».

فتابع حديثه: «لا شيء. لم يسعنا عمل شيء، فاكتفينا بالنظرات والابتسام، ولكني أعتقد أن مرافقها انتبه إلى ما يجري، فليس لك أن تتخيّل الفوضى العارمة التي اندلعَت بعد ذلك، إذ انطلق صياح وشدّ وجذب، ثم أمسك أحدهم بذراعها، غير أنها لم تسمح له، بل راحت تضربه وتركله، وهي ترمقني من آنٍ إلى آخر، أما الرجل الذي رافقها إلى دورة المياه فأشار ناحيتي مرتَيْن، ولكنها ظلّت تحتجّ، وتدخّل الجميع في تلك الفوضى».

عاودتُ سؤاله: «وماذا بعد؟».

- «لا شيء. أخذوها عنوة. ولكن ليس لك أن تتخيّل النظرة التي ألقَتها عليّ وهي في طريق الخروج. ليس لك أن تتخيّل».

وبدلاً من أن تستأثر تلك القصة بفضولي، بثّت في نفسي الخوف. تناهَت إلينا أخبار عن أشخاص من محيطنا، بعضهم أصيب بعيار ناري وبعضهم اضطُرّ إلى ارتياد ديسكو آخر، لمُجرّد أنهم حاولوا الاقتراب منها. كنتُ متأكّداً أن إميليو لن يكون هو الاستثناء. وعلى الرغم من ذلك، فحين أخبرني بتلك القصة، كانت روساريو قد فرضَت سيطرتها على الوضع وصارت رفيقة إميليو الجديدة.

- «في اليوم التالي عادت وحدها. تصوّر يا رجل، وحدها، من دون باقي العصابة، لم تكُن برفقتها إلّا صديقة واحدة لا بأس بها، سنقدّمها لك».

- «لا تنغّص عيشي، إميليو، الأحرى بك أن تستمرّ في حكايتك».

- «جاءت وحدها، ولكني كنتُ مع سيلبانا».



t.me/qurssan

- «مع سيلبانا؟! لا تمازحني، وماذا بعد؟».

- «كادت روساريو تأكلني بعينَيها، غير أن سيلبانا وقفَت في طريقنا. عندئذٍ لجأتُ إلى تلك الحيلة القديمة، فتظاهرتُ بأني أُصِبت بوعكة، وطلبتُ الحساب، وفي طريق الخروج أشرتُ إلى روساريو بما معناه أني عائد فوراً».

سألَته سيلبانا: «لماذا تقود السيارة بهذه السرعة، إميليو؟ ما الداعي إلى العجلة؟»، فأجابها: «أشعر بوعكة شديدة يا حبيبتي، شديدة جدّاً».

أما أنا فقلتُ له: «يا لك من نذل، إميليو».

- «أيّ نذالة وهذه الكعكة في انتظاري؟».

- «وهل انتظرَت لحين عودتك؟».

- «طبعاً أيها المُغفّل، كلهن ينتظرنني. ليس لك أن تتخيّل كم كانت عذبة. في أول الأمر شعرنا بما يشبه الخجل، ولكن بعد ذلك...».

سألها إميليو: «ما اسمكِ؟».

فأجابَته: «روساريو. وأنت؟».

- «أنا؟ إميليو».

من المُؤكّد أن أبواب الحظ قد انفتحَت على مصراعَيْها لإميليو حتى صار هو الاستثناء. لم نعرف كيف تمكّنَت روساريو من ذلك، لأن أصدقاءها ظلّوا يتردّدون على المكان، وإن لم يحدث قط أن اقتربوا منها أو تعرّضوا لإميليو، دع عنك أن يقتربوا منها بعد حادثة پاتو. أما الوحيد الذي كان إذا حضر لا يرفع عينَيه عن روساريو ولا يرفع يده عن جراب المُسدّس ولا يرقص لأنه مستغرق في مراقبتهما، الوحيد الذي كانت الدموع تطفر من عينَيه كلما عُزِفَت إحدى الأغاني الهادئة التي يرقص الحضور على



t.me/qurssan

أنغامها متعانقين، فهو فيرني. كان يتربّع في مقصورته بالأعلى، ويطلب زجاجة من الويسكي، ويجلس في مواجهتهما طوال الوقت، حتى يتسنّى له أن يرمقهما في غضب. وكان كلما أوغل في السكر اشتدّ السخط والألم البادي في عينيّه. وعلى الرغم من ذلك، فهو لم يفارق مقعده قط، ولا حتى ليقضي حاجته.

في البدء، لم أملك إلّا الشعور بالعطف نحوه، تضامناً مع شخص يشبهني على نحو لا ريب فيه. كان فيرني عضواً في نادينا، نادي الساكتين، أولئك الذين يشعرون بغصّة إن فتحوا أفواههم، آكلو الخراء الذين لا يفصحون عن مشاعرهم، ويحتفظون بالحبّ في دخيلة أنفسهم، ويدارونه كالجبناء، أولئك الذين يحبّون في صمت ويتمرّغون في الوحل.

كان ينظر إلينا، فأنظر إليه أنا الآخر من طرف عيني، غير أني لم أدرك لكل هذا الهوس سبباً، حتى كان أن تعرّفت عليها، فبدأ ذلك الهوس يستحوذ عليّ شيئاً فشيئاً، حتى رأيتني تائهاً، وقد استقرّت روساريو في قرارة نفسي، وعائَت في قلبي خراباً. عند ذاك فهمتُه، فوددتُ لو أتخذ لنفسي مقعداً بجواره وأسكر معه، وأرمقها بينما يعتصرني الألم نفسه، والسخط نفسه، وأبكي إلى الداخل كلما رأيتُ الآخر يقبّلها، كلما راقصها، كلما أسرّ إليها برغبته في أمرٍ يتحقّق لهما لاحقاً.

سألَتني روساريو: «إن ذلك المدعو فيرني غريب جدّاً. انظر إليه، أتفهمه؟».

قلتُ لها مُبرّراً: «لعلّه ما زال مغرماً».

– «إن تلك هي الحماقة بعينها، الشقاء حبّاً».

«من أي مادة صُنعتِ، يا روساريو المقصّ؟»، لطالما سألتُ نفسي كلما سمعتُها تتفوّه بمثل تلك الأمور. «من أي مادة صُنعتِ؟»، كلما رأيتُها



t.me/qurssan

تذهب إلى أشد الأشداء، كلما رأيتُها تخرج نحيلة ثم تعود بدينة، كلما ذكرتُ ليلتنا معاً.

«أصبحتُ أملك روساريو هنا»، قال إميليو مشيراً إلى راحة يده. «أعتقد أني سأتذوّقها الليلة».

لم أحفل بالأمر حين شاركها الفراش لأول مرة، بل إني لا أذكر متى كان ذلك. لم تكُن روساريو قد أتلفَتني بعد. حكى لي إميليو ما جرى فلم أفكّر في شيء سوى أنه يلعب بالنار، وأنهم سوف يردونه قتيلاً. أضف إلى ذلك أن فيرني أخذ يرسل إليه بالتهديدات في تلك الفترة، مع أنه لم يقترب منه، فخفتُ أن ينفّذ تهديداته. كنتُ أكثر اهتماماً بإميليو آنذاك، وانشغلتُ بما قد يقع له، بل وجرؤت على البوح إلى روساريو بمخاوفي. فقالت: «هدّئ من نفسك. لقد أصدر أخي أمره بعدم المساس بنا».

ليس الأمر أنه كان يريد حماية إميليو، فهو لم يكُن حتى قد تعرّف به. غير أنه فعل ما فعل من أجلها، لأن رغبات أخته أوامر. كان يذوب أمام دلال أخته الصغرى ويمتثل لنزواتها، وهو التابع الذي ينشر الفزع في المدينة، «الرجل الذي ترتعد منه أحياء ميديّين». كان چونيفي يقول: «دعوا الصغيرة تقرّر بنفسها».

ولكن مخاوفي عادت إليّ حين قتلوه. في غياب چونيفي، صار فيرني زعيم العصابة، فجعله موتُ رفيقه أشدّ عنفاً وهوساً بتملّك روساريو. أراد أن يحلّ محل أخيها، ويصل ما انقطع بينها وبينه. وعلى الرغم من ذلك، فروساريو لم ترغب في أيٍّ من الأمرَيْن. قالت له: «الأفضل لك أن تهدّئ من نفسك، فيرني. فأنا أعرف كيف أعتني بنفسي، ولا أبحث عن حبيب».

سألها فيرني: «وماذا عن إميليو المُغفّل؟».

فأجابته: «إميليو هو إميليو».



t.me/qurssan

- «كيف؟ وماذا عني؟».

- «أنت فيرني».

لم يكُن من الغريب سماعها وهي تتملّص بتلك الكلمات المراوغة للبتّ في ما يصعب عليها تفسيره. أما فيرني، الذي كانت قدرته على الاستيعاب تشبه مهارته في الرماية، فلم يبقَ أمامه سوى حكّ رأسه وكيل الشتائم لإميليو بضع مرات أخرى. قلتُ لروساريو: «على كل حال، ما زلتُ لا أثق في ذلك المدعو آرلي».

- «فيرني».

تابعتُ حديثي: «هو ذاك. لأنه في اليوم الأبعد عن البال سيفقد عقله ويفعل أفاعيله».

فقالت: «إطلاقاً، لقد تغيّر كثيراً. لو أنك عرفته من قبل لخفت حقّاً. لك أن تتخيّل، ذات مرة، عندما كان يواعدني، ذهبنا إلى السينما لمشاهدة أحد أفلام شوارزنجر التي ما كانت تفوتنا قط، فجلس خلفنا رجل لم يكفّ عن أكل البطاطس المقلية منذ وصوله، حتى كاد فيرني يفقد عقله بسبب صوت العبوة البلاستيكية، وقال لي إنه غير قادر على التركيز، وكان مُحقّاً، فظلّ ينظر إلى الأمام وإلى الخلف طوال الوقت، حتى لم يقوَ على تحمّل المزيد».

- «معذرة يا سيدي، ولكن صوت العبوة البلاستيكية يزعجنا».

فلم يعره الرجل أدنى انتباه، حتى إنه لم ينظر إليه، وظلّ يأكل البطاطس. بل والأدهى من ذلك أنه حين فرغ من العبوة الأولى، فتح أخرى. فأصرّ فيرني: «معذرة يا سيدي، ولكني أعتقد أنك لم تسمعني جيداً. صوت العبوة البلاستيكية يزعجنا، هلّا تركتَ البطاطس إلى وقت لاحق؟».

تابعَت روساريو حكايتها: «لم يلقِ الرجل إليه بالاً. فاستشاط فيرني



t.me/qurssan

غضباً. والتفَت إليه بكلّ جسده، حتى وقف في مواجهته، واستلّ المُسدّس، ثم غرزه في بطنه، وأطلق النار. ما كاد الرجل يحرّك ساكناً. أفلت العبوة، محدّقاً في بطنه، وظلَّ على تلك الحال، وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الفزع، كما لو كان يشاهد فيلم رعب».

سألتُها: «وماذا فعل الناس؟».

- «لا شيء. لم ينتبه أحد إلى ما جرى لأن رصاصة فيرني غابت وسط وابل الرصاص الشديد الذي انهمر على شاشة السينما».

- «وهل شاهدتما الفيلم إلى النهاية؟».

- «كلّا يا صديقي. قال لي فيرني: "هيا بنا، فلقد سئمت"».

كان هذا هو عدو إميليو. ومع ذلك، أخذَت روساريو تطلب مني ألّا أقلق. في حين رحتُ أتساءل، ما دام فيرني قد فعل كل ما فعل بسبب عبوة بطاطس، فهل يتورّع عن شيء بسبب آلام الحب! علماً أني، وأنا الذي لم أقتل حتى ذبابة، كنتُ...

قالت روساريو: «اسمع يا صديقي، هو يعلم أنه لو أضرّ بإميليو أضرّ بي أنا الأخرى، والشيء الذي تأكّدتُ منه أن فيرني لن يجرؤ على أن يجرحني أبداً».

كانت روساريو تتقن اللعب بأوراقها، وتعرف ناسها وتعرف ماذا تتوقّع منهم. وكانت تعرف أن من خذلها سوف يُكافأ بقبلة، ويُجازَى برصاصة من فوهة المُسدّس الملصقة بجسده، كما علّمها فيرني.

لطالما فعلَت ما يحلو لها، حتى إنها هي نفسها اعترفَت بصعوبة مراسها منذ الصغر. ولذا تركَت أمها وذهبَت إلى أخيها، بل وربما لهذا لم تأمن على قلبها أحداً قطّ. ما كانت روساريو تتقيّد بقيد، ولا حتى مع أشد الأشداء، الذين صوّرَت لهم نفسها على أنها سهلة القياد دوماً.



t.me/qurssan

- «ولكن إن لم يفوا بكلمتهم، تركتهم».

- «أيّ كلمة؟».

- «إنها صفقة يا صديقي، صفقة قائمة على الكلمة، وإن وفيتُ بكلمتي، فعليهم الوفاء هم أيضاً».

كنتُ أسمعها تقول تلك الأمور في الوقت نفسه من كل عام تقريباً، كلما قدّمَت لهم روساريو مطالب جديدة، وذكّرتهم ببنود الاتفاق. وهكذا كانت تنجح في إقناعهم بشراء شقة أو سيارة جديدة من أجلها، أو بضخ النقود في حسابها المصرفي. كانت تقول: «ما داموا يريدون رؤيتي مرة أخرى، فعليهم بتغيير السيارة المازدا الصغيرة. آن الأوان لتغييرها».

أنا مُتأكّد من أن فيرني في قرارة نفسه كان سعيداً باستمرارها معهم: فهو حتى وإن فقدها إلى الأبد كان يبتهج لرؤية إميليو في حال يرثى لها. ولكن من جانبها لم يطرأ أي تغيير على صلتها بإميليو. إذ كانت روساريو ترى أن علاقتها بالأشداء تشبه ملتقى الطرقات، حيث يساهم كل طرف بأفضل ما يملك. وإن كانت تقول بإصرار: «أما إميليو فهو إميليو».

ولكن إميليو كان له رأي آخر. فالأمر من وجهة نظرة لم يعدُ أن يكون ضرباً من العهر. ولكن أشدّ ما آلمه هو علم الجميع بما يجري، ولا سيما أنه كان آخر من يعلم. فبسبب صلتنا الوثيقة بها، كنتُ وإميليو آخر من يعلم إلى أين تذهب روساريو في تكتّم. تردّدَت الشائعات، التي كانت في أغلب الأحيان تتناقلها الألسنة الحاسدة، فما كُنّا نلقي إليها بالاً. وفي وقت لاحق، جاءنا فيرني نفسه وأخبرنا بالحكاية. فارتبنا في حديثه هو الآخر، علماً أن فيرني جريح، ومُستعدّ لاستغلال الوضع أيّاً كان، لمُجرّد أن يضع حدّاً لتلك العلاقة. ولهذا لم يبقَ أمامنا غير التوجه إلى روساريو نفسها بالسؤال.

قال لي إميليو: «اسألها أنت. لأن ثقتها فيك أكبر».



t.me/qurssan

فأجبتُه لائماً: «ولماذا أنا؟ أنت الذي تواعدها».

كُنّا نموت خوفاً. وظنّنا أنها سوف تطلب منا أن نأكل الخراء ردّاً على سؤالنا، فتضيع روساريو من بين أيدينا بسبب شائعة. حتى كان يوم، رأيناها فيه تصل وهي رائقة المزاج، بعد أن غابت طوال العطلة الأسبوعية، فقرّرنا أنها اللحظة الملائمة.

بدأتُ حديثي قائلاً: «الناس مُروّجو شائعات حقّاً. ما عادوا يعرفون أي قصص يختلقون».

أردف إميليو: «يا لهم من أوغاد مُروّجي شائعات. ليس لكِ أن تتخيّلي أي أمور تتناقلها ألسنتهم».

وقالت روساريو: «ليس كل ما يُقال شائعات».

سألناها معاً: «كيف؟».

أجابتنا روساريو: «كالعادة، نصف ما يُقال حقيقة ونصفه الآخر كذب».

سألها إميليو: «وأي النصفَيْن حقيقة؟».

أجابَت: «لا بدّ أنه النصف الذي يؤلمك».

وكانت مُحقّة، إذ كانت روساريو قد تورّطَت في العمل معهم قبل أن تتعرّف بنا. جُنّ جنون إميليو وأخذ يطيح بالمقاعد، ويركل الأبواب، ويحطّم الأثاث، في حين راحت النار تأكل صدري. كان أحدهم يأتي ويبعدها عني في كل مرة، إميليو تارة، والمجتمع تارة، وفيرني تارة، والآن حان دورهم هم. لزمَت روساريو الصمت بينما انطلق إميليو يخرّب شقتها. لم تنبس بكلمة واحدة، في حين أخذ هو يبكي ويلوّح بيدَيْه ويكيل الشتائم. لزمتُ الصمت أنا الآخر، ورحت أترقّب كما فعلَت هي أيضاً ريثما يفرغ إميليو من تلك المسرحية. وإن كنتُ أترقّب أن تلقي إليّ نظرة، أن تقول لي شيئاً، أن تشركني معها في فوضاها. وما زلتُ لا أدري ما إن تجاهلَتني



t.me/qurssan

عمداً أو إنها لم تقوَ على النظر إليّ. من المُؤكّد أن خيانة الصداقة أشد من خيانة الحبّ.

أعاود التفكير في إميليو والحيرة التي أوقعَته روساريو فيها، فينتابني شعور مفاجئ بضرورة الاتصال به مرة أخرى.

- «يا رجل، أنتظر اتصالك منذ بعض الوقت، ماذا جرى؟».

- «تحدّثتُ إلى الطبيب. يقول إنها أصيبَت بالرصاص في كل أنحاء جسدها».

- «رصاص الأمس أو رصاص المرات السابقة؟».

- «أُطلِقَت عليها عدة أعيرة نارية من فوهة المُسدّس التي كانت ملصقة بجسدها».

أردف إميليو: «بينما هي تتلقّى قبلةً».

سألتُه: «وكيف عرفت؟».

- «إنهم يسقونها من الكأس نفسها».

أذكر المرات التي رأيتُ فيها روساريو وهي تقبّل رجالاً آخرين، أذكرهم وهم يتساقطون قتلى إثر رصاصة مكتومة آتية من فُوّهة المُسدّس الملصقة بأجسادهم، فيتشبّثون بها، وكأنهم يريدون الاحتفاظ بها في قبلتها المميتة.

أذكر كلمات إميليو حين قبّلها لأول مرة. لطالما تباهى بالانتصارات الأولى في غزواته، بلمسة اليد الأولى، بالقبلة الأولى، بالمرة الأولى في الفراش. غير أن تعقيبه في تلك المرة لم يكُن متباهياً، وإنما باعثاً على الحيرة: «لقبلاتها مذاق غريب جدّاً».

سألتُه: «ما مذاقها؟».

أجابني: «لا أدري. إنه غريب جدّاً. لقبلاتها مذاق الموت».



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 9

توثّقَت بيني وبين إميليو صداقة منيعة منذ أيام المدرسة. كان عهداً قطعناه بلا كلمات، ولا دماء، ولا وعود مخمورة. بل إنها كانت ببساطة بذرة ودٍّ متبادل، فجنينا ثمرتها صداقة دامت مدى الحياة. وجدتُ فيه الشقّ الجريء الذي أفتقر إليه، فأنا لم أكُن بالفتى الذي يخوض المجهول من دون أن يفكّر مرتَيْن، الفتى الذي كانه إميليو على وجه التحديد. وأعتقد أنه قد وجد فيّ الشقّ الجبان الذي يعوزه، وإن كان في حاجة إليه من أجل التفكير في وجه المخاطر مرتَيْن. في تلك الأعوام، فضلاً عن المودّة التي شعرتُ بها نحوه، كنتُ أضمر له الإعجاب، لقدرته على الوصول إلى ملذّات الحياة: النساء، والنقود، والشراب. كنتُ أراه يتحرّك بحرية، بلا وازع أخلاقي، ولا إحساس بالذنب، فيتذوّق الأيام وكأن كل يوم هدية. أما أنا، فكنتُ أسعى مغموماً للاعتراض على أسلوب حياة الشبّان الذي لا مفرّ منه. في وحدة مطبقة، كنتُ أُبحر خلسةً في القراءات والأفكار الوجودية التي اصطدمَت بعالَمي القائم في الشارع، ومشروعات إميليو، واصطدمَت لاحقاً بالأعراف الاجتماعية صدمة بالغة الشدة. عند ذاك وجدتُ في إميليو صديقاً، ومُتنفّساً للطيش. وغنيّ عن القول إني عثرتُ عليها هي أيضاً، على شطحتنا الكبرى، روساريو المقصّ.



t.me/qurssan

أما اليوم فما عدتُ أضمر لإميليو الإعجاب، مع أني ما زلتُ أشعر بالمودة نحوه. لم يمضِ زمنٌ طويل على تلك الأيام، ولكن الظروف أماطت اللثام عن سرائرنا وكشفَت حقيقتنا، كشفَت ما يظهر منا بمضيّ الأعوام، فيتيح للبعض الوصول إلى أبعد مما يصل إليه البعض الآخر. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد أن شعوري نحوه بالمودّة ما كان لينجو لولا جميع تلك الذكريات، ذكريات انغماسنا في الحياة، سنواتنا في المدرسة، وتصفية حساباتنا مع الآباء الكهنة، وأول فيلم نشاهده في سينما الكبار، وأول مجلة إباحية، والاستمناء، والعشيقة الأولى، والمرة الأولى، وأسرار الأصدقاء، والسّكْر الأول، والأمسيات التي كُنّا نقضيها في الشرفة ونحن لا نفعل شيئاً بخلاف الحديث عن الموسيقا وكرة القدم وأشياء من هذا القبيل، وأول مرة نتعاطى فيها المُخدّرات، حين ضحكنا حتى كدنا نفعلها وأكلنا حلوى البونيويلو، والبيت الريفي الصغير الذي استأجرناه في سانتا إلِينا كي ندخّن ونشرب في هدوء ونأخذ إليه النساء اللاتي نسهر معهن حتى الفجر، البيت نفسه حيث أمضى إميليو ليلته الأولى مع روساريو، وأمضيتُ ليلتي معها أنا أيضاً، ليلتي الوحيدة.

كانت هي التي أعتقَتنا من تلك المراهقة التي رفضنا التخلّي عنها حتى بعد أن بلغنا طور الشباب. كانت هي التي دفعَت بنا إلى العالَم، هي التي قسمَت طريقنا اثنين، هي التي أثبتَت لنا أن الحياة مختلفة عن المنظر الذي قد رُسِم لنا. كانت روساريو المقصّ هي التي جعلَتني أحسّ بالقلب وهو يخفق بأقصى قوة، وجعلَتني أرى خيباتي السابقة في الحبّ وكأنها مُجرّد نكاتٍ تليق بالسيدات، وأرَتني الجانب الانتحاري من الحبّ، والظروف القصوى التي لا يرى المرء فيها إلّا من خلال عينَيّ الآخر، حيث الطعام اليومي هو الخراء، حيث يغيب العقل ويبقى المرء تحت رحمة ذلك الذي وقع في حبّه.



t.me/qurssan

كلما استغرقتُ في ذكرياتي، تلك الذكريات المرتبطة بروساريو، خطر على بالي أن كل شيء كان سيغدو أهون لو لم ألزم الصمت. لم يعرف إميليو بخوفي يوماً، لم يعرف ونحن نضع القوارير الخاوية على دَرَج المدرسة ليلاً حتى يتعثّر الآباء الكهنة فيها وسط الغبش. لم يعرف بخوفي ونحن ذاهبان إلى «إل دورادو» لمشاهدة السينما الإباحية، لم يعرف بالحرج الذي شعرتُ به عندما اقترح عليّ الاستمناء ونحن نطالع أول نسخة تقع بين أيدينا من مجلة «بلاييوي»، لم يعرف كيف وجدتُ مذاق أول قبلة قط، ولا أول نشوة جنسية مفاجئة شعرتُ بها في أول مرة. غنيّ عن القول إنه لم يعرف مشاعري نحو روساريو، إذ كان صمتي بحجم الحبّ الذي شقيتُ به. أثرتُ الكثير من الشكوك، والكثير من الظنون، وإن لم يجرؤ فمي قط على التفوّه بكلمة: أحبّك، وأموت، أموت حبّاً فيكِ منذ أمد بعيد.

«ماذا بك يا صديقي؟»، سألَتني روساريو.

- «أموت».

- «هل أنت مريض؟».

- «أجل».

- «وما الذي يؤلمك؟».

- «كل شيء».

- «ولماذا لا تزور الطبيب؟».

- «لأن دائي بلا علاج».

لم أجرؤ قط على الذهاب إلى أبعد من ذلك. بل كنتُ أنتظر معجزة من السماء، معجزة توقع روساريو في حبّي، فتبادرني بالحديث عن الحبّ، وتغدو قبلة واحدة كفيلة بكشف ما لا تجرؤ شفاهنا المتشابكة على البوح به.



t.me/qurssan

كانت روساريو هي التي سألتني في تلك المرة: «كيف تعرّفتَ بإميليو؟».

فأجبتُها: «أعرفه منذ الصغر. منذ أيام المدرسة».

- «وهل كنتما صديقَيْن دوماً؟».

- «دوماً».

لاحظتُ في أسئلة روساريو ظنوناً تتجاوز مُجرّد الفضول. استغرقَت وقتاً طويلاً في طرح أسئلة بسيطة للغاية. ثم إني تأكّدتُ من الشكوك التي راودَتني حين رأيتُ المسار الذي اتّخذه ذلك التحقيق، إذ عاودَت روساريو السؤال: «ألم تتشاجرا قطّ؟».

- «لم نتشاجر قطّ».

فأصرّت روساريو: «ولا حتى بسبب امرأة؟».

- «ولا حتى بسبب امرأة».

ثم ختمَت حديثها قائلةً: «تخيّل يا صديقي لو أني خنتُ إميليو معك...».

من عادتي الردّ على تلك المواقف بضحكةٍ مقتضبة بلهاء. إنها لفتة تنطوي على شيء من الجبن، ألوذ بها كي لا آتي بردّ فعلٍ بعينه، لفتة تقف على طرف النقيض من الابتسامة التي رسمَتها روساريو في تلك المرة معلنةً عن انتهاء الاستجواب. جاءت لفتتها أكثر حزماً، وليدة بعض التدبير من جانبها، وإن بدَت لي مُعلّقة، إذ انطبقَت شفتا روساريو فجأةً وكأنها لا تودّ المضي قدماً في ما دبّرَته، ثم انفرجَتا من جديد، مثلما جرى ليلتئذٍ، حين عاودَت روساريو الابتسام، بينما أنفاسها تتلاحق وعرقها يتفصّد تحت جسدي.

أمضيتُ زمناً طويلاً وأنا أفكّر في نوايا روساريو. كنتُ أسائل نفسي عن السبب اللعين الذي قد يجعلها ترغب في خيانة إميليو معي، ما دامت تخونه مع أشد الأشداء فعلاً، علماً أن رد فعل إميليو ما كان يتجاوز نوبة



t.me/qurssan

غضب يمكن علاجها ببضعة لقاءات في الفراش. من الجليّ أن الخيانة مع أعزّ الأصدقاء تترك جروحاً قاتلة، ولكن ما رغبتها في إلحاق المزيد من الأذى بإميليو؟ وما رغبتها في الإيقاع بيننا؟ وبعد الكثير والكثير من التكهّنات، وصلتُ إلى شرّ الأمور: إلى أرض الأوهام الزائفة.

قلتُ لنفسي: «روساريو تلمّح إلى شيء».

ثم قلتُ لنفسي: «روساريو تريد مني شيئاً».

ثم وصلتُ إلى كذبة الختام: «روساريو معجبة بي».

ومن دون أن يقع شيء بيننا، صرتُ أشعر وكأني قد خنتُ أعزّ أصدقائي. وما عدتُ قادراً على النظر إليه كما في سابق عهدي، ما عدتُ قادراً على الحديث إليه كما جرَت العادة، وصرتُ أتجنّب ذكر اسمها، خشية أن تتسلّل إلى صوتي نبرةٌ مفعمة بالحب، فيفتضح أمري. وكنتُ أشيح بوجهي إلى الجانب الآخر لو اضطررتُ إلى الحديث عنها، لئلّا يلمح في عينَيّ وميضاً.

أما الآن فأنا على يقين من أن حبي ظلَّ محجوباً عن الأعين، وأن أحداً لم يلمح عليّ شيئاً. كم كنتُ أتمنّى لو أنها ارتابت في أمر ما، لو أن لفتة من جانبي أفضَت إليها بكلّ ما عجزتُ عن البوح به جبناً، ربما حملها ذلك على أخذ زمام المبادرة، أو الإشارة إلى الأمر، لا أدري. قد أحكي لها كل شيء حين تخرج من العملية وتتعافى، ولا سيما الآن وقد مرّ زمنٌ طويل، قد أُخبِرها بالأمر على أنه شيء من الماضي، وربما ضحكنا، بل وربما لامتني لأني لم أخبرها من قبل، وربما اعترفَت بأنها قد أحبّتني هي الأخرى وخافت أن تعترف لي بمشاعرها أيضاً. ربما سمحوا لي بالدخول كي أراها في وقتٍ لاحق، ربما أخذتُ بيدها وحكيتُ لها كل شيء، فيكون ذلك أول ما تسمع بمُجرّد أن تفيق.



t.me/qurssan

«أهي حبيبتك أم أختك؟»، سألني العجوز الجالس أمامي، الذي أفاق من غفوته، فأجبتُه: «لا هذا ولا ذاك. إنها صديقة».

- «يبدو عليك أنك تحبّها كثيراً».

فدار في خلدي: «لم يبدُ هذا عليّ إلّا مُتأخّراً، شأن كل أموري». أو ربما عرف الجميع، ولكن أحداً لم يتفوّه بشيء، حتى يظلّ كل شيء على ما هو عليه، لئلّا يتأذّى أحد، لئلّا يخسر أحدنا الآخر، لئلّا يتهشّم الرباط الذي جمعنا. لطالما فكّرتُ أن الحبّ ليس مُؤلّفاً من طرفَيْن، ولا ثلاثة، وإنما هو مُؤلّف من طابور مُمتدّ، نحبّ فيه من اصطفّ أمامنا، فيحبّ هذا من اصطفّ أمامه أيضاً، إلى آخره؛ طابور يحبّنا فيه من جاء خلفنا، فيحبّه من جاء خلفه أيضاً، إلى آخره؛ طابور نحبّ فيه ذلك الذي يولّينا ظهره دوماً. أما الأخير فلا يحبّه أحد.

«ابني في الداخل. جئتُ به وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، كادوا يقتلونه»، قاطعني العجوز من جديد.

خطر لي أن ابنه قد يكون واحداً من أصدقاء روساريو. لولا يقيني بأن فيرني قد لقي مصرعه لظننتُ أنه ربما كان هو، أو ربما كان واحداً من الكثيرين الذين تعرّفتُ بهم في حفلاتها، لا شك أنه يعرف من هي، وإن لم أكُن متأكّداً من أن روساريو قد تتعرّف عليه.

قلتُ للعجوز: «متى قام ابنك، فقُل له إن روساريو المقصّ ترقد إلى جواره».

سألني العجوز وقد تملّكته المفاجأة: «روساريو هنا؟».

فسألتُه ومفاجأتي أعظم وأعظم: «أتعرفها؟».

وإزاء وضوح الأمر قال: «ربّاه! ماذا جرى لها؟ ماذا فعلوا بها؟».

- «مثلما فعلوا بابنك».



t.me/qurssan

- «كلّا، فرؤية الرصاص في جسد امرأة مختلف جدّاً، وأشدّ إيلاماً. يا للمسكينة! لم نرَها منذ أمد بعيد، وقيل لنا إنهم قد أردوها قتيلة».

لا أدري لماذا بعث كلامه في جسدي رجفة، ما دامت روساريو والموت فكرتَيْن لا يمكن الفصل بينهما، ولا يُعرَف أيهما يُجسّد الآخر. كانت روساريو والموت واحداً.

كُنّا نعرف أن روساريو تقوم نهاراً، وإن لم نتأكّد قطّ مما إذا كانت سترجع ليلاً. كانت تغيب عدة أيام فنتوقّع الأسوأ، نتوقّع أن نتلقّى تلك المكالمة فجراً، من أحد المستشفيات، أو المشرحة، أو الشارع، فيسألنا المُتّصل عما إذا كُنّا نعرف امرأة بتلك الأوصاف، تحمل رقم الهاتف الخاص بنا في حقيبتها. ومن حسن الحظ أنها كانت هي المُتّصلة في كل مرة، فتبادرنا بتحيّتها المُعبّرة قائلةً «ها قد وصلت» أو «ها قد عدت»، سعيدةً بسماع صوتنا من جديد، وإذا الروح تعود إلى جسدي، وأتمكّن من التقاط أنفاسي مرة أخرى في هدوء. لم أكترث لساعة اتصالها، وهي التي كانت توقظني من نومي في أغلب المرات، غير أني لم أكترث، فأهمّ ما في الأمر التحقّق من سلامتها، وعودتها، وإن لم تتّصل بي سوى لجسّ نبض إميليو، غير أني لم أكترث، بل كنتُ أنا الوحيد الذي يحسن استقبالها، علماً مني أن إميليو، وفيرني أيضاً على الأرجح، ما كانا ليُظهران فرحتهما بعودتها، أو يقدران على ذلك.

كانت روساريو تقول لي: «ينبغي للرجال أن يكونوا جميعاً مثلك يا صديقي. ليس لك أن تتخيّل كيف ينغّصون عيشي جميعاً، إميليو، وچونيفي، وفيرني، كلّهم، إلّا أنت».

كانت تلك اللحظات، حين تخبرني روساريو بذلك، هي اللحظات الوحيدة التي أشعر فيها بالسعادة لأن حبي لها من طرف واحد. كنتُ أشعر



t.me/qurssan

بأني أهمّ شخص في حياتها. ما كانت سعادتي تطول أكثر من دقيقتَيْن، ولكن حسبي هاتان الدقيقتان لأشعر بأني أنا رجلها، فتى أحلامها، الذي كانت ستحظى به لولا وجود الآخرين، عند ذاك، وبينما تستحوذ عليّ تلك الفكرة، كانت تنتهي الدقيقتان اللتان أقضيهما في السماء، فأسقط أرضاً على مُؤخّرتي، بجوار الآخرين، أولئك الذين فازوا بروساريو ذات مرة، بطريقة ما.

سألتُها: «وماذا عن الأشدّاء؟ ألا ينغّصون عيشك؟».

- «من؟ تقصد الفتيان؟».

- «ليسوا من الفتيان على حدّ علمي».

أوضحَت روساريو قائلةً: «هكذا نلقّبهم، نحن الفتيات».

لا أدري من كانت تقصد بقولها «نحن الفتيات». ومع أني أمقت الافتراض، فقد افترضتُ أنها تقصد «نسخاً أخرى من روساريو»، رفيقات لها في المغامرة، يضاهينها جمالاً ونزوعاً إلى المجازفة.

- «كلّهم ينغّص عيشنا يا صديقي، كلهم. ومتى وجدتَ لنفسك حبيبة، ربما نغّصت عيشها أنت أيضاً».

«حبيبة؟»، رحتُ أتساءل. حتى روساريو لم يسعني أن أتخيّلها على ذلك النحو، كان ذلك شيئاً غريباً، أحببتُها بكلّ ما أملك من رغبة، وإن لم أعرف كيف أتخيّلها معي. لم ترِد كلمة «حبيبة» ولا كلمات أخرى من هذا القبيل في خواطري المرتبطة بها. إذ كانت روساريو فكرة أكثر منها كلمة، فكرة جعلتُها لي أنا، بلا مُسمّيات، ولا حقوق ملكية، كان ذلك أمراً بسيطاً ومُعقّداً في آن واحد، بقدر عبارة «أنا وروساريو».

قلتُ لها لائماً: «الشيء الذي أعجز عن فهمه هو ولع المرأة بالشكوى في حين أنها هي التي تسمح لمن ينغّص عيشها بذلك».



t.me/qurssan

فرفعَت كتفَيْها ثم أنزلَتهما، بذلك الرد الخالي من الأمل، تلك اللفتة التي يقابل بها المرء ما لا يرغب في تغييره. تركَتني كلماتها مُحطّماً. حدّثتني عن حبيبة سوف أجدها، حبيبة لم تكُن هي بطبيعة الحال، وحكمَت عليّ بأني سوف أنغّص عيشها. لم تدرك أني أنا الذي سوف يُنغِّص عيشه بعد أن استبعدَت نفسها. كانت تعرف أني مختلف، وقالتها لي بنفسها، ومع ذلك استبعدَت نفسها، ونغّصت عيش كلٌّ منا.

أجابتني: «ليس ولعاً يا صديقي، ولكن ما داموا جميعاً ينغّصون عيشنا، فلا سبيل إلى التغيير».

«وماذا عني، روساريو؟!»، راح فكري يصرخ. «ماذا عني؟ قلتِ لتوّكِ إني مختلف!»، صرختُ في قرارة نفسي، وأنا لا أجرؤ على فتح فمي وسؤالها، لا أجرؤ على الشكوى من ذلك الاستثناء، والمطالبة بالمكان الذي أستحقّ، فزممتُ شفتَيّ حتى أصرخ فيها بصوت أقوى، حتى ألومها سائلاً: «ماذا عني، روساريو؟!». وعند ذاك، لا أدري ما إن كان ما جرى مصادفة بغيضة، أو لعلّها تمكّنَت من سماع صدى صمتي، فمع أني لم أسأل عن شيء، قالت روساريو: «أما أنت، يا صديقي... فأنت رائع».

ثم إنها مدّت ذراعها ناحيتي حتى أضرب كفّي بكفها.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 10

تطوّق مدينةَ ميديّين ذراعان جبليّتان. عناق طوبوغرافي يحاصرنا جميعاً في المساحة نفسها. لطالما حلمنا بأولئك الذين وراء الجبال، وإن شقّ علينا اقتلاع جذورنا من تلك الحفرة. إنها علاقة حبّ وكراهية مفعمة بمشاعر تليق بامرأة أكثر مما تليق بمدينة. إن ميديّين تشبه سيدات الماضي، فهي كثيرة الأبناء، كثيرة الصلوات، تقية، مولعة بالتملّك، وهي في الوقت نفسه أمّ، غاوية، عاهرة، خلّابة، صارخة المفاتن. الراحل عنها يعود، وجاحدها يتراجع، وشاتمها يطلب الصفح، والمعتدي عليها يدفع الثمن. عجيب جدّاً أمرنا مع تلك المدينة، فعلى الرغم من الخوف الذي تبثّه في نفوسنا، والرغبة في الرحيل عنها، تلك الرغبة التي نازعَتنا جميعاً ذات مرة، ومع أننا قتلناها مرات كثيرة، فدائماً ما يكون النصر حليف ميديّين في خاتمة المطاف.

قالت لي روساريو ذات يوم، وهي تبكي: «علينا أن نذهب من هنا يا صديقي. أنا وأنت وإميليو».

سألتُها: «إلى أين؟».

فأجابَتني: «إلى أي مكان. إلى مستنقع الخراء».



t.me/qurssan

راحت تبكي لأن الوضع ما كان يحتمل أقل من البكاء. كان ثلاثتنا في البيت الريفي الصغير، وقد اختلينا بأنفسنا منذ وقت طويل، ورحنا نتعاطى كل ما يمكن تعاطيه، وكل ما يمكن الحصول عليه من المُخدّرات. كان إميليو ينام تحت تأثير الجرعات المفرطة، أما أنا وروساريو فنبكي ونحن نراقب مطلع الفجر.

قالت: «سوف تقتلنا هذه المدينة».

فأجبتُها: «لا تلقي باللائمة عليها، فنحن الذين نقتلها».

- «إذاً، فهي تثأر منا يا صديقي».

كانت روساريو قد وصلَت وهي في غاية الضيق بعد عطلة أسبوعية برفقة الأشداء، وطلبَت منا الخروج من المدينة بضعة أيام. لم تخبر أحداً بما جرى لها، ولا حتى أنا، لا حينذاك ولا في وقت لاحق، ولكننا امتثلنا لرغباتها وذهبنا إلى البيت الريفي الصغير، لأنها لم تترك لنا خياراً آخر. في الطريق خطر لي أن ضيق روساريو لم يكُن بالجديد، إذ مضى عليها وقت طويل وهي على تلك الحال. ومع أنها لم تكُن تتعاطى المُخدّرات إلّا في بعض المناسبات -إذ كانت متعاطية «اجتماعية»، كما يقول البعض- فلقد عزوتُ حالتها إلى زيادة الجرعة المعتادة. كنتُ قد نأيتُ بنفسي قليلاً، كما أفعل في بعض الأحيان، إذ بدا أن علاقتها بإميليو تمرّ بلحظة من لحظات الذروة، تلك اللحظات الحافلة بالكثير من الصخب والكثير من الجنس. ولذا آثرتُ الابتعاد بنفسي قليلاً. ولكن تلك النشوة الجارفة على وجه التحديد هي التي أغرَقتهما في حالة من الهياج والمزاج العاصف باعدَت بيني وبينهما أكثر وأكثر، فمضى شهران وأنا لا أعرف عنهما شيئاً. حتى كانت ليلة اتّصل بي فيها إميليو وطلب مني مرافقته إلى شقة روساريو. فقلتُ أول ما قلتُ: «إنها معهم». فلم يبدُ عليه أنه يأبه لذلك. كان ذاهلاً،



t.me/qurssan

يتحدّث فيبدو مستغرقاً في التفكير بأمور أخرى، إن كان في وسعه التفكير من الأساس.

قال لي: «ليس لك أن تتخيّل ما خضناه».

غير أنه لم يحكِ لي شيئاً. شعرتُ بأنه قد أخذ عن روساريو الكثير، ومن ذلك: الغموض، وتوجّس الخطر، والحاجة إليّ.

راح يتوسّل قائلاً: «لا تتركني وحيداً يا فتى. ابقَ معي حتى تعود روساريو».

لم أبقَ معه عن طيب خاطر. كان إميليو في حالة جعلَته لا يُطاق، يشتدّ حنقه بسبب أتفه التفاصيل، ويعجز عن التركيز في حديثٍ واحد. طلب مني أن أقرضه نقوداً حتى يشتري المُخدّرات، فاضطُرِرتُ إلى مرافقته. كان عاجزاً عن البقاء وحده لحظةً، فتعيّن عليّ مرافقته حتى في أثناء الاغتسال. لم أتمكّن من تمالك نفسي، وقلتُ له: «إميليو، أنت غارق حتى أذنَيْك في الخراء. أليس من الأفضل أن نذهب إلى بيتك؟ فهناك ستكون أفضل حالاً».

أجابني بركلتَيْن من قدمه، ولكنه ما لبث أن تشبّث بي معانقاً، باكياً، مُتوسّلاً، طالباً الصفح، ورجاني أن أبقى معه إلى حين وصولها، فلم يسعني تركه وحيداً، وقد آلَمَتني رؤيته على تلك الحال. زد على ذلك أني كنتُ خائفاً أنا الآخر، وحدّثني ظنّي بأني سأنتهي مثله عاجلاً أم آجلاً، وقد كان.

بعد ثلاثة أيام تقريباً وصلَت روساريو، فطلبَت الخروج من المدينة. كانت غاضبة، غير أنها طلبَت منا ألّا نسألها عن أي شيء. استقللنا سيارتها وذهبنا. كان إميليو يشعر بتوتّر شديد، فآثر الجلوس في الخلف، بينما جلستُ في المقعد الأمامي بجوار روساريو، التي أصرّت على قيادة السيارة مع أني طلبتُ منها السماح لي بذلك. وإن كانت روساريو جامحةً



t.me/qurssan

خلف مقود السيارة، حتى في رشدها، فهي في تلك الحالة لم تعُد لديها أدنى فكرة عن السرعة والتحكّم ومراعاة الآخرين. تجرّأ إميليو واحتجّ قائلاً: «أتنوين قتلنا أم ماذا؟! هدّئي السرعة فلقد صرتُ مُتوتّراً للغاية في الفترة الأخيرة».

أما أنا فانزلقتُ في مقعدي، وتشبّثتُ بحافتيّه، ثم فردتُ ساقَيّ وكأن في وسعي كبح السيارة بهما. وإن لم أُضطَرّ إلى ذلك، لأن روساريو كبحَت السيارة على نحو مفاجئ، إلى حدٍّ دفع إميليو إلى الجزء الأمامي، فاستقرّ بيني وبينها، واصطدمَت بنا السيارة الآتية من الخلف، فلم يبدُ على روساريو أن دوي الزجاج والصفيح يشغلها، لم يشغلها سوى إميليو، إميليو المسكين، الذي صرخَت في وجهه: «ما الذي وتّر أعصابك إلى هذا الحدّ أيها المُخنّث! لماذا لا تذهب سيراً لعلّك تهدأ؟».

- «سيراً؟ لا تتّبعي هذا الأسلوب».

- «أنا لا أتّبع هذا الأسلوب، بل إنك أنت الذي تتّبع هذا الأسلوب! انزل فوراً، يا ابن العاهرة!».

تدخّلتُ في الحديث: «روساريو، الأمر لا يستحقّ».

توعّدَتني بقولها: «لا تتدخّل وإلّا نزلتَ أنت أيضاً!».

وفيما نحن على تلك الحال ظهر مالك السيارة التي جاءت خلفنا وراح يطرق نافذة روساريو طرقاً خافتاً. وبينما هي تفتح النافذة، أخذتُ أشير إلى الرجل بأن يذهب. لم يكُن يدري بمن اصطدم. قال في أدب: «آنستي، دعينا نرَ كيف نصلح ما جرى، يبدو لي أنكِ كبحتِ السيارة بحدّة، أليس كذلك؟».

أجابته روساريو قائلةً: «بحدّة؟! سيدي، لقد كبحتُ السيارة بالطريقة التي تحلو لي، وإلّا فهل من قواعد تمنع ضغط المكابح؟».



t.me/qurssan

ظللتُ أشير إلى الرجل بأن يذهب، في حين قال إميليو وهو لا يزال محشوراً بيننا: «الآتي من الخلف يدفع الثمن».

فقالت له روساريو: «إميليو، لا تتدخّل، إنها سيارتي أنا! دعنا نرَ ما هذه الحماقة يا سيدي!».

قالت وترجّلَت من السيارة ممسكة بحقيبتها، وإن لم يفُتها التأكّد من وجود المُسدّس فيها أولاً. عبثاً صرخنا فيها: «روساريو!».

لم تسعنا رؤية ما يجري خلف السيارة بوضوح، إذ تهشّم الزجاج، ولكنه ظلَّ مكانه. لم نرَ إلّا شبح روساريو وقد التصقَت بالرجل. أما الصوت الذي سمعناه بعد ذلك فكان دوي رصاصة بعثَت الحيرة في نفسَيْنا، ورحنا نتخيّل الأسوأ. عجّلَت روساريو بالصعود إلى السيارة وصفقَت الباب. ثم قالت لإميليو، الذي كان لا يزال في الجزء الأمامي: «عُد إلى الخلف، أيها المُغفّل!».

انطلقَت بأقصى سرعة، حتى سُمِع صرير الدواليب، وسرنا بسرعة تفوق تلك التي وصلنا بها حتى هناك.

سألها إميليو: «ماذا جرى يا حبيبتي؟ ماذا فعلتِ؟». فلم تُحِر جواباً.

سألتُها أنا الآخر: «هل سوّيتِ المسألة معه؟».

فأجابت أخيراً: «المسألة؟ طبعاً سوّيتُها».

عاود إميليو سؤالها، خائفاً: «وكيف؟».

- «بحدّة».

جاء كلامها مُوجّهاً لنفسها أكثر مما كان مُوجّهاً لنا، ولم تعاود النطق بكلمة حتى وصلنا.

في البيت الريفي الصغير لم تتغيّر الأمور كثيراً، أو ربما تغيّرَت إلى



t.me/qurssan

الأسوأ. ما كدنا ندخل إلى البيت حتى أخرجَت روساريو كميات من كل ما يمكن للواحد أن يتعاطاه: كوكايين، بازوكو، ماريجوانا، بل وحتى الأقراص، فنثرَتها على الفراش وقسّمَتها إلى مجموعات. فكّرتُ أنا وإميليو أنه لو كان حقّاً ما فعلَته روساريو بصاحب السيارة، فالأرجح أنها سوف تعكف على تناول الطعام، وتسمن عقاباً لنفسها على الجرم الذي اقترفَت، غير أنها لم تطلب طعاماً في أيّ وقت.

همس إميليو في مسمعي: «لقد غيّرَت قائمة الطعام».

فأجبتُه: «أو لعلّها لم تفعل بالرجل شيئاً، واكتفَت بترويعه فحسب».

لم نقف على حقيقة ما جرى قطّ. وخلال الأيام التي أمضيتُها معهما، لم تتكلّم روساريو إلّا قليلاً، بقدر ما أكلَت ونامت. كما لم يجمع بينها وبين إميليو لقاء حميميّ واحد، على حدّ علمي. أما الشيء الذي تمادى فيه الجميع، وأنا أيضاً، فهو تعاطي المُخدّرات. وإذا نحن كثلاثة من الانتحاريين، نتسابق من أجل بلوغ الموت أولاً، ثلاثة من الزومبي المحمومين، نمزّق أنفسنا بغضبنا المشحوذ، وضغينتنا المُسنّنة، نجرح أنفسنا بحدّ الصمت، ونُخرِس مشاعرنا بالمُخدّرات، مكتفين بالتعاطي وتأمّل بعضنا بعضاً. لا أدري كم من الوقت مضى، ولكن في وقت لاحق، بكَت روساريو، ثم بكى إميليو، وحين عجزتُ عن تحمّل المزيد، بكيتُ أنا الآخر، وأنا لا أعرف لذلك سبباً مُحدّداً، ولو كان لبكائنا سبب، فيمكن القول إنه كل شيء، فمتى جاشَت الروح بكلّ شيء، طفرت الدموع. وبعد ذلك، لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن أرفع الراية البيضاء، وأعود أدراجي، في لحظة من لحظات اليقظة.

تركتُهما وحيدَيْن. ولم أعرف عنهما شيئاً طوال شهر. فلم أعرف ما إن بقيا في البيت الريفي، ولم أعرف الحالة التي كانا عليها. من جانبي سعيتُ



t.me/qurssan

إلى استرداد عافيتي. عدتُ إلى البيت فوجدتُ أهل بيتي وكأن بهم مسّاً من الجنون بسببي، بل وساء حالهم أكثر وأكثر حين وقعَت أبصارهم عليّ عند وصولي، حين رأوني أسقط على ركبتَيّ طالباً العون، وإن لم يفهموا مقصدي، فظنّوا أني أودّ الخلاص من تلك المُخدّرات التي تفسد الجسد والشرايين، لا تلك الأخرى التي تتسلّل إلى المرء عَبْر العينَيْن، ومن الأسفل، وتتوغّل إلى القلب، وتنخره، تلك المُخدّرات اللعينة التي يعرفها الأكثر غفلةً بين الناس باسم الحُبّ، مع أنها مُضرّة وقاتلة بقدر المُخدّرات التي تُباع في الشوارع مُغلّفةً في عبوات صغيرة.

«كيف أُشفَى منها؟»، سألتُ أبوَيّ مُتوسّلاً، فلم يفهماني.

ذات يوم، في وقت مُبكّر للغاية، اتّصل بي إميليو وروساريو عَبْر الهاتف. كانا لا يزالان حيث تركتُهما، وقد ساء حالهما. طلبا مني العودة، لأنهما في حاجة مُلِحّة إليّ، مسألة حياة أو موت. كانت روساريو هي التي كلّمَتني. قالت بصوت مختلف عن صوتها المعهود: «سأموت لو لم تأتِ».

جاءت «سأموت» بنبرة محتضرة، بل وغامضة، أما «لو لم تأتِ» فجاءت بنبرة مُتوسّلة، مُلزِمة. لم تزد روساريو على قولها شيئاً، واكتفَت بعبارة واحدة، فلم تكُن في حاجة إلى أكثر من ذلك حتى أذهب إليها، إليهما، للتو واللحظة. كنتُ أعرف أنها هي حين وقع عليها بصري. وعلى الرغم من ذلك، فقد أفلت اسمها مني في صيغة استفهام، وكأن لم تسبق لي رؤيتها قط. فقالت وهي تلصق وجهها بوجهي: «يا صديقي، يا صديقي العزيز، ها قد جئت أخيراً».

استقبلني إميليو كالمجنون، فعانقني وراح يربّت على ظهري بحركات ليس لها ما يفسّرها، وإن لم تبدُ على وجهه أمارات البهجة برؤيتي، بل بالأحرى الهلع، فلم أدرِ ما إن كنتُ أنا السبب في ذلك، أو الظروف التي



t.me/qurssan

يمرّان بها. مسخه الخوف حتى صعُب التعرّف عليه أيضاً. في تلك اللحظة تفهّمتُ موقف أسرتي حين وقع بصرهم عليّ لدى وصولي، إذ نادوني باسمي في صيغة استفهام، وكأنهم لم يتعرّفوا ابنهم، مثلما قابلتُ روساريو. في تلك المرة كان إميليو هو الذي روى لي قصته، وزعم أنه قتل رجلاً، ثم أوضحَت روساريو أنها هي التي قتلَته، وليس إميليو، وأخيراً زعم هو أنهما قتلاه معاً. فأصرّت روساريو بقولها: «أنا يا صديقي، أنا التي قتلتُه».

لم يسعني التحقّق من صحة الأمر، والتأكّد من أن الجريمة لم تكُن وليدة الهذيان والإفراط في المُخدّرات والخلوة. بل وارتبتُ فلم أدرِ ما إن كانا يقصدان الرجل الذي اصطدم بسيارتنا، إذ ربما قتلَته روساريو، أو ربما كانا يقصدان رجلاً جديداً، لا أدري، فلقد بلغَت أفكارهما من الفوضى والارتباك حدّاً أعجزني تماماً عن الوقوف على ما جرى في غيابي. بل إني سألتُهما عن الواقعة حين عادا إلى رشدهما في وقت لاحق، فلم يذكر أحدهما شيئاً مما جرى، ولم تكُن لديهما إلّا فكرة مبهمة عن الجحيم الذي عاشاه في البيت الريفي الصغير.

أما السبب الذي دفعهما إلى الاتصال بي، فقد جعلني أندم على الذهاب للقائهما. قالا إنهما في حاجة إلى النقود، فقدّمتُ لهما النقود القليلة المُتبقّية معي بسخاء. فلم يكُن ذلك ما يبحثان عنه. قالت لي روساريو: «كلّا يا صديقي، نحن في حاجة إلى الكثير من النقود».

أصررتُ على السؤال: «ولكن، كم؟».

فأجابني إميليو: «الكثير يا رجل، الكثير».

ومع ذلك، لم يكُن أخطر ما في الأمر هو المبلغ، بل المصدر، المكان الذي يجب عليّ الذهاب إليه كي أحصل على النقود، فضلاً عن الطريقة التي يجب عليّ اتباعها، وأنا الذي وقع عليّ اختيارهما بالإجماع.



t.me/qurssan

قالت روساريو: «كل ما عليك فعله أن تخبرهما بأني أنا التي أرسلتُك».

سألتُها في جزع: «ولكن، لماذا أنا؟ لماذا لا تذهبان أنتما؟».

قالت روساريو شارحةً: «لأنهم لا يريدون رؤية وجهي الآن».

- «إذاً، فلماذا يعطونك نقوداً؟».

- «لأني سأطلبها منهم. تذكّر جيداً، عليك أن تخبرهم بأني أرسلتُك في طلب النقود بالتي هي أحسن. تذكّر، "بالتي هي أحسن"».

عاودتُ سؤالها، وقد اشتدّ جزعي: «كيف هذا؟ "بالتي هي أحسن"؟ كيف؟».

- «هم يفهمون ما أعني يا صديقي، يكفيك تنفيذ ما أقول لك».

سألتُ إميليو: «ولماذا لا تذهب أنت؟».

أجابني إميليو الجبان مثل الأرانب: «أنا؟! ألا ترى أني حبيبها؟».

ثم قالت روساريو وهي تحاول استجماع صبرها: «اسمع يا صديقي، قدّم لي هذه الخدمة، لو أنك تحبّني».

فدار في خلدي: «لو أنك تحبّني... ها هو الحبّ يستلّ أقوى أسلحته». بالطبع كنتُ أحبّها، ولكن إلى أي مدى تحبّني هي حتى تزجّ بي في تلك الورطة؟ إلى أي مدى يجب عليّ الانحدار كي أسوّغ لها أو لنفسي قولها: «لو أنك تحبّني»؟ ما قيمة الابتزاز في الحب، حيث كل شيء مباح؟ أهناك من يحبّ الجبناء؟ أو يحبّ آخر المُصطَفّين في الطابور؟

قرّرتُ تحويل دفة الحديث: «ولكن، ما حاجتكما إلى كل هذه النقود؟».

فأجابني إميليو: «لا تطرح أسئلة حمقاء. أتذهب أم لا؟».

«طبعاً سيذهب»، قالت روساريو وأمسكَت يدي في حنان. «طبعاً سيذهب».



t.me/qurssan

وإذا لعبتها الدنيئة تكشف لي عن ذروة الحبّ الذي قد يشعر به المرء تجاه أحدهم، تلك النقطة الحرجة التي بلغتُها فما عاد يهمّني الموت من أجل روساريو. رأيتُها ويداي بين يدَيْها، وعيناها مفعمتان بالحنان (على الرغم من نظراتها الكاذبة)، ولسانها يحاول سُدىً ترطيب شفتَيْها الجافتَيْن، فلم أرغب في رفض طلبها. لم تهمّني الوقاحة التي أبدَتها في استغلالي، ولا الحبّ الزائف بين هاتين اليدَيْن، وفي هاتين العينَيْن، وعلى ذلك اللسان. أنا الضائع، فماذا يضيع مني إن ضعت؟

- «إذاً، فما الذي يجب عليّ فعله؟».

«لا شيء»، قالت وكأنها حقيقة. «كل ما عليك أن تسأل عنه هو، لا أكثر».

سألتُها: «وبأي لقبٍ أخاطبه؟ السيد، الدكتور، المحترم...».

قالت في عذوبة: «باللقب الذي يحلو لك».

سألتُها وقد خدّرَتني عذوبتها: «وماذا إن قتلوني؟».

أجابني إميليو وهو يكاد يفعلها من فرط الضحك: «إذاً، سندفن جثمانك».

أما روساريو فأحكمَت يدها حول يدي، شاخصةً إليّ، تخدعني بقدر أكبر من الحبّ، ولسانها القاتل يبرز مُجدّداً، أكثر رطوبة بقليل في تلك المرة.

- «إذا قتلوك سأقتلهم، ثم أقتل نفسي».

أما «هو»، فلم أستطع التعرّف به. من حسن حظي، باءت المهمة بالفشل، ولم تتجاوز المحاولة بوابة البناء الذي يُفترَض أنهم لاذوا به،



t.me/qurssan

بسبب حملة الصيد التي انطلقَت بغرض الإيقاع بهم. لم أجنِ سوى تحقيق استمرّ ساعة، أجراه معي خمسة من الوحوش المُدجّجين بالسلاح، جرجروني إلى مرأب، وهناك أرهبوني بالسلاح والسباب والضحكات المقتضبة القاتمة. ولكن أسوأ ما في الأمر أن كل ما فعلتُ كان سدى: فلدى عودتي إلى روساريو وإميليو، وأنا لا أزال عاجزاً عن الوقوف على ساقَيّ من فرط ما رحتُ أرتجف، وجدتُهما أشد غياباً وغرابة من أي وقت مضى.

سألني إميليو: «أي نقود».

وسألَتني روساريو: «من أين أتيت؟».

ثم قال إميليو: «يا رجل، يبدو أنك دخّنتَ الحشيش وهو لا يزال أخضر».

ثم قالت روساريو: «لقد ذهب عقلك».

وتركا المسألة إلى غير عودة.

كانت روساريو مُحقّة بشأن موقعي. فأنا الوحيد الذي قد يخطر له أن يلقي بالاً إلى هذين المُنحلّيْن اللذين ما كانا يعرفان ولا حتى موقعهما على سطح الكوكب. «لو أنك تحبّني...»، فكّرت، «كان من الممكن أن يقتلوني، بينما هذان لا يزالا هائمَيْن فوق السحاب من دون أن يتمكّن أحد من إنزالهما»، فكّرتُ غاضباً، «لقد ذهب عقلي»، فكّرتُ غاضباً وحزيناً.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 11

هأنذا، في المستشفى، أنتظرها، أتذكّرها، بل وأضع المشروعات المستقبلية، وأصوغ العبارات التي سألقيها عليها متى قامت، بينما يراودني شعور بأن كل شيء ما زال باقياً على ما هو عليه، بأن تلك الأعوام التي أمضيتُها من دون روساريو لم تمرّ، وبأن الزمن عاد بي إلى آخر دقيقة أمضيتُها برفقة روساريو. تلك اللحظة الأخيرة، حين لم أودّعها، على عكس ما فعل الآخرون. سبق أن ودّعتها غير مرة، «وداعاً روساريو»، كنتُ أقول وقد غلبني إحساس بالتعب لأنها ليست لي أنا، وإن كانت تلك الوداعات تأتي دوماً متبوعةً بقولها: «ها قد عدت»، أما في دخيلة نفسي فلطالما جاءت متبوعة بقولي: «لم أعُد قادراً». جالساً هنا، أدرك أن ذلك الوداع الأخير لم يكن نهائيّاً، فها أنا قد عدتُ مرة أخرى، ها أنا عند قدمَيْها مرة أخرى، أترقّب أن تُنفّذ مشيئتها، ها أنا أسائل نفسي كم وداعاً ينقصني قبل الوصول إلى ذلك الوداع النهائي والأخير. كنتُ أتمنّى لو أني ذهبت، لو أني تركتُها كما فعلت في مناسبات أخرى كثيرة، لقد فعلتُ ما يكفي من أجلها، وأدّيتُ واجبي، وهي الآن في أيدٍ أمينة، في الأيدي الوحيدة القادرة على فعل شيء من أجلها، أما بقائي هنا فقد صار بلا معنى، وبالعودة إلى ما سبق، فإميليو هو الذي يجب عليه أن يكون معها، لأن التزامه نحوها



t.me/qurssan

أقوى. أما أنا، فماذا أفعل هنا بحقّ الشياطين؟ رحتُ أتذكّر، «صديقي، يا صديقي».

تأبى قدماي الاستجابة لإرادتي. بمشقةٍ أنهض، لمُجرّد التحقّق من أن كل شيء باقٍ على ما هو عليه: المُمرّضة، الرواق، بزوغ الفجر، العجوز المسكين المستغرق في التهويم، الساعة المُعلّقة على الحائط بعقاربها التي تشير إلى الرابعة والنصف فجراً. وفي ما وراء النافذة، ضباب الفجر يحجب عنا الجبال، ويمحو مغارة الميلاد والأحياء العلوية، أحياء روساريو، الأرجح أنه سوف يحجب عنا الشمس أيضاً في هذا اليوم، بل وسيأتي مُحمّلاً بدفقة من الأمطار الغزيرة، من تلك التي تجرف الوحل والأحجار وتترك في المرء شعوراً بأنها قد أمطرَت خراءً.

قالت لي روساريو ذات مرة: «لا يروقني المطر».

- «ولا أنا».

جدير بالذكر أني لم أقُل ما قلتُ ابتغاءً لمرضاتها.

- «يبدو وكأن الموتى يبكون في الأعالي، أليس كذلك؟».

رُدّت إليّ روساريو بعد انتهاء موسم المُخدّرات في البيت الريفي، فكأنها قد اختُزِلَت إلى النصف. كان إميليو قد تركها في شقتها واتّصل بي مُحذّراً. لم يكُن أفضل منها حالاً، وإن كان لديه مكان يذهب إليه ولا يشعر فيه بالوحدة على أقل تقدير. قال لي: «اشملها برعايتك يا رجل، فأنا ما عدتُ قادراً».

طِرتُ إليها. كان الباب قد تُرِك مشرعاً، وحين دلفتُ إلى الشقة وجدتُها ترنو إلى المطر، عارية من الخصر فما فوق، حافية القدمَيْن، لا ترتدي من الثياب إلّا السروال الجينز. شعرت بوجودي فالتفتَت إليّ، وإذا هي شاخصة إليّ بنهدَيْها، وحلمتَيْها السمراوَيْن اللتين سرى إليهما تيار



t.me/qurssan

كهربائي بفعل البرودة. ربما كانت تبدو كالصورة التي رسمتُها في مخيّلتي خلال اللقاءات الحميمية بيني وبين ذاتي، بَيْد أني لم أتعرّفها وهي على تلك الحال، قريبة إلى هذا الحد، عارية إلى هذا الحد...

قلتُ لها: «ربّاه، روساريو، سوف تمرضين».

«صديقي العزيز»، قالت وألقَت بنفسها في حضني، كعهدها كلما وجدَت نفسها وقد تاهَت تيهاً لا يُغتفَر.

غطَّيتُ جسدها، وحملتُها إلى الفراش، ودثّرتُها بالأغطية، ورحتُ أفتّش عن آثار الحُمّى على وجنتَيْها، ومسّدتُ شعرها إلى الوراء، وكلّمتُها بعذوبة، بالنبرة «المُخنّثة» التي كثيراً ما كرهَتها، وإن لم يسعني تلافيها حين رأيتُ روساريو على تلك الحال، منهارة، خامدة، مهزولة، وإن كانت فوق كل شيء في غاية الوحدة والقرب مني.

بمشقةٍ خرج صوتها: «أنا مُستنزَفة يا صديقي، مُستنزفَة من كل شيء».

- «سوف أشملكِ برعايتي، روساريو».

- «سأعتزل كل شيء يا صديقي، كل شيء. سأعتزل ما يقتلني، وأعتزل تلك الحياة السقيمة، وأعتزلهم، وأعتزل شروري، يا صديقي».

قلتُ لها مقتنعاً: «لستِ شريرة، روساريو».

- «بلى يا صديقي، شريرة جدّاً، وأنت تعلم ذلك».

طلبتُ منها ألّا تتكلّم أكثر مما فعلَت، وأن تستريح، وأن تحاول الحصول على قسط من النوم. عند ذاك أطبقَت أجفانها طائعةً، فرأيتُها شاحبة، واهنة، هامدة، حتى لم أملك إلّا أن أتصوّرها وقد فارقَتها الحياة، وإذا رعبٌ جارف يتملّكني، ويجعلني أشدّ على يدَيْها، ثم أميل عليها لأطبع قبلة على جبينها، من دون أن ينهاني عن ذلك شيء.



t.me/qurssan

- «سأشملك برعايتي، روساريو».

وبتنهيدة ألقَت عن كاهلها بعضاً من متاعبها، فأحسستُ بها وهي تتنشّق هواء جديداً، الهواء المنعش الذي كانت تحلم به، هواء مساعيها الجديدة، ثم أحسستُ بها وهي تفلت يدي وتستسلم للراحة، فدثّرتُها حتى العنق، وأسدلتُ الستائر، وسِرتُ على أطراف أصابعي إلى الباب، بَيْد أني لم أتمكّن من تركها وحيدة، بل جلستُ إلى جوارها، ورحتُ أرنو إليها.

«أحبّك جدّاً، روساريو»، قلتُ لها بصوت عالٍ، على الرغم من يقيني بأنها ما عادت تسمعني الآن وقد استغرقَت في نوم عميق.

مكثتُ في بيتها على مدى الأيام التالية للاعتناء بها ومرافقتها وهي في تلك الحالة. كانت أياماً عصيبة للغاية. راحت روساريو تغوص في اكتئابها بسرعة تبعث على الدوار، وتجرفني في طريقها. حاولَت الإقلاع عن تعاطي المُخدّرات، ولكن سدى. إذ كنتُ أُضطَرّ إلى الخروج ليلاً، والحصول على بعض المُخدّرات من أجلها في «الأوكار» الأشد وحشة، مدفوعاً باليأس الذي استحوذ عليها. بَيْد أنها في نهار اليوم التالي كانت تجهش بالبكاء مُجدّداً، نادمةً على انتكاستها، وتلعن تلك الحياة التي تعيشها، ثم تقسم مرة أخرى على الالتزام بمساعيها الجديدة.

- «لا أدري أيّهما أفضل، الموت أم البقاء على هذا الحال».

- «لا تتفوّهي بحماقات، روساريو».

- «أنا جادة يا صديقي، إنه قرار في غاية الصعوبة».

- «إذاً، فابقي على هذا الحال».

أما الشيء الذي كنتُ مُتأكّداً منه أن المُخدّرات لم تكُن هي السبب الوحيد في ذلك الغمّ، بل الظروف التي حملَت روساريو إليهم، الظروف التي أغرقَتها في قاع الوحل. فكانت المُخدّرات هي الملاذ الأخير



t.me/qurssan

للتخفيف من الضرر الذي أوقعَته بها الحياة، السياج الزائف الذي يشيّده المرء على حافة الهاوية.

كنتُ أقول لها: «لا بدّ أن المخرج موجود... ذلك النور الشهير في آخر النفق».

- «سيّان».

- «لا أفهمكِ، روساريو».

- «ذلك النور الشهير لا يضيء شيئاً جديداً، أو شيئاً مختلفاً عما رأيناه حين دخلنا إلى النفق».

بالتأمّل في الأمر، كانت مُحقّة. ذلك أن المدخل والمخرج لا يختلفان في الشكل كثيراً. فتبقى الكذبة دافعاً وحيداً من أجل البقاء على قيد الحياة.

- «ما دام النفق طويلاً، فربما دخلتِ إليه تحت المطر وخرجتِ منه في وضح الشمس، هذا ممكن حقّاً».

- «ومن يضمن لي يا صديقي ألّا ينهمر المطر من جديد؟».

ذكّرتني بالحيتان صعبة المراس التي تأبى العودة إلى البحر. فمهما حاولتُ الخروج بها إلى النور، أوغلَت هي في الغوص أكثر فأكثر، مستعينةً على ذلك بثقلي، وكأنه الهدف الذي وضعَته نصب عينَيها. وأخيراً سلّمتُ بعجزي عن تقديم أي شيء من أجلها، وبأن الخيار الوحيد المتاح أمامي هو البقاء بجوارها والترقّب ريثما تنهض من كبوتها على الأقل. فكان آخر ما قلتُ لها قبل أن أستسلم: «روساريو، لن تفلحي أبداً ما لم تكذبي على نفسك وتخدعيها بالأوهام».

ومن جانبي، فقد عملتُ بتلك الوصفة، ورحتُ أحلم بروساريو متعافيةً، مفعمةً بالحياة وبمشاعر الحبّ الجارفة نحوي، فكان ذلك هو الكذب في أقصى مداه، الوهم الذي دام بقدر ما يدوم السؤال.



t.me/qurssan

- «ماذا عرفتَ عن إميليو؟».

فأجبتُها بالحقيقة: لم أعرف عنه أي شيء. ولكني لم أخبرها بالسبب الذي جعلني لا أعرف عنه شيئاً. حين أجبتُ عن سؤالها، كان عليّ إخبارها بانقطاعي عن العالم، وتفانيّ في الاعتناء بها، والليالي التي أمضيتُها وأنا أراقبها في نومها، والبدائل التي رحتُ أفتّش عنها حتى أنتشل روساريو من ذلك المستنقع، واللذة التي كنتُ أشعر بها لمُجرّد العلم بأننا وحدنا معاً، حتى وإن كانت في النزع الأخير. لهذا السبب، ودونه الكثير من الأسباب -لأني لم أذكر لها شعوري بالغيرة- لم أعرف شيئاً لا عن إميليو ولا عن العالم الخارجي، لم أعرف الشهر، ولا اليوم، ولا الساعة، ولا حتى اسمي، فأنا لم أسمع شيئاً سوى «يا صديقي، يا صديقي العزيز»، التي كانت تصلني كالرجاء، كالحسرة.

بعد فترة فتحنا النوافذ. فكان ذلك من بشائر التحسّن. وامتلأ البيت بالضياء الذي تراءى لنا حينها أقوى من المعهود. إذ كُنّا قد ألفنا البقاء في العتمة ليل نهار، والاختلاء بأنفسنا كالميئوس من حالتهم، ودرجنا على ألّا يكون لنا زمان ولا مكان في هذا العالَم. وإذا بي أحسّ بستارة تنزاح فجأة، تلَتها أخرى، فأخرى، فباقي الستائر. كانت هي التي راحت تفتحها، بحركة واحدة، باندفاعة قوية. أما أنا فخرجتُ وقد أغمضت عينَيّ نصف إغماضة منبهراً بأشعة الشمس، أو ربما بالأمل الذي عاد يسطع مرة أخرى عَبْر تلك النوافذ.

قالت روساريو: «لا مكان للغبار في هذه الشقة. لا بدّ من تنظيفها بالكامل. وكما تقول دونيا روبي: "يجب ألّا يخلط الواحد بين الفقر والإهمال"».

- «معذرة، روساريو، ولكن عن أي فقر تتحدّثين؟».



t.me/qurssan

- «لقد أعاروني كل هذا يا صديقي. وربما انقلبوا عليّ وسلبوني كل شيء في اليوم الأبعد عن البال».

دخلَت إلى المطبخ ثم رأيتُها بعد لحظة تخرج مُحمّلة بالمكنسة وأقمشة التنظيف والمقشات والدلو، ثم إنها جمعَت شعرها، وألقَت بالمنشفة على كتفها. همّت بوضع القابس، ولكنها انتبهَت إلى دهشتي، فسألتني: «ماذا تفعل واقفاً هناك؟».

- «ماذا ستفعلين أنتِ، روساريو؟».

- «تعني ماذا سنفعل. سوف ننظّف المكان يا صديقي العزيز، ولا تتصنّع البلاهة، تعالَ وخذ هذا».

- «ولماذا لا تتّصلين بالسيدة التي تنظّف المكان؟».

- «لا سيدة ولا خراء! سأتولّى الصالة والمطبخ، أما أنت فحجرات النوم. ولكن عجّل، فالأمر لا يحتمل التأجيل إلى الغد!».

سلّمَتني الأدوات، ثم أوصلَت المكنسة، وإن تراءى لي أنها كانت هي الماكينة، وأن التيار الكهربائي قد سرى إليها هي. «روساريو تنظّف؟»، رحتُ أتساءل حين دخلتُ إلى المساحة التي عُهِد إليّ بتنظيفها، «لا أدري ماذا أفعل، هل أقلق أم أفعلها من فرط الضحك؟». غير أني شعرتُ بالقلق حين وجدتُ نفسي مُحمّلاً بالأدوات التي سلّمَتني روساريو إياها، وأنا لا أملك عن استخدامها سوى فكرة مبهمة. «لو رآني إميليو!»، فكّرت، وبعد ذلك لم أملك إلّا التفكير في إميليو بجدّية.

في وقتٍ لاحق، سيحكي لي بنفسه كل ما جرى له. أو «كيف جرى»، على حدّ قوله. ذلك أن أسرته قد عرضَته على أطباء، وعلماء نفس، ومعالجين، بحثاً عمّن يصف له علاجاً خارج البلد، أو «خارج روساريو»، طبقاً لما عزمَت عليه أسرته. وعلى الرغم من حالة الوهن



t.me/qurssan

البادية، فلطالما استجمع شيئاً من القوة حتى يقول بلهجة قاطعة: «لن أذهب، أي لن أذهب»، ما حمل أسرته على السعي في اتجاه آخر، أي محاولة التخلّص من روساريو. أما العواقب، فلم يكُن من الممكن أن تسوء عما آلَت إليه، كالمُتوقّع. رأيتُها تخرج من حجرتها، فدار في خلدي أنها قد انتكسَت، إذ لم أكُن قد عرفت أنها تلقّت اتصالاً من أسرة إميليو. خرجَت تحفّها ألسنة النار.

- «عصابة من أولاد العاهرات!».

- «ماذا جرى، روساريو؟!».

- «سأقتلهم! سأجهز عليهم جميعاً، سحقاً!».

- «ولكن ماذا جرى؟ من اتّصل بك؟ ومن "هم"؟».

- «هم؟! من تقصد بـ"هم"؟ فـ"هم" أفضل من أولاد العاهرات هؤلاء».

وفي غمرة خطبتها النارية، تمكّنتُ من كشف طلاسم كلامها وعرفت ماذا تقصد وعمّن تتحدّث. كانت كالمجنونة، فلم تهدأ بمضيّ الوقت. بالعكس، بدَت أسوأ حالاً. شعرتُ بالخوف على صحتها، وحالتها، وتعافيها. وخطر لي أن كل التقدّم الذي أحرزناه بمشقة بالغة سوف يضيع من بين أيدينا. عبثاً حاولتُ تهدئتها، بَيْد أني كنتُ أعرفها، وأعرف أنها مسألة وقت، ولكنها لم تهدأ.

- «الأوغاد، أولاد العاهرات!».

- «لا تعيريهم أيّ انتباه، روساريو».

- «انتباه؟! أتدري ماذا قلتُ لهم؟ أتدري بماذا أجبتُ أولئك السفلة؟ قلتُ لهم أن يأخذوا نقودهم، ونواياهم الحسنة، وكلماتهم، ومن ذلك: «نحن لا نودّ إلّا المساعدة»، و«إنه من أجل صالح الجميع»، و«نحن أولاد ناس»، وألقابهم، وسمعتهم، قلتُ لهم أن يأخذوا كل هذا ويصنعوا منه



t.me/qurssan

لفافة ويضعوه في مُؤخّراتهم! آه! وأن يضعوا إميليو في مُؤخّراتهم أيضاً، إن وجدوا له مُتّسعاً».

- «هل قلتِ لهم كلّ هذا؟!».

- «كلّ هذا وأكثر منه كثيراً!».

فأطلقتُ ضحكة بلغَت من القوة حدّاً لم تملك معه روساريو غير الاستسلام للعدوى. وحين رأيتُها تضحك هدّأت نفسي، ها هي ذي النار بدأت تخمد، مع أني كنتُ مُتأكّداً من اندلاع النار في بيت إميليو، ولم أكُن مخطئاً، غير أني ظِللتُ أضحك مُتخيّلاً وجوههم، والبلبلة التي فجّرها لسان روساريو الوقح، أو ربما ابتهجتُ بوجود إميليو في حضن أسرته أكثر مما ابتهجتُ بشتائم عزيزتي روساريو.

وعلى الرغم من ذلك، كانت لتلك الواقعة شديد الأثر على سلوكها. فمنذ اليوم الذي قرّرَت فيه أن تفتح النوافذ، إلى أن تلقّت اتصال أسرة إميليو، كانت روساريو في حالة معنوية مشرقة، وأنا معها. فلم نولِ أحداً غيرنا أدنى اهتمام، على الرغم من عزلتنا عن العالَم، وبدأنا نطفو على السطح في طريقنا للخروج من العتمة. لم يحدث أن سُرّ كلٌّ منا برفقة الآخر إلى هذا الحدّ، لا من قبل ولا من بعد، ولا حتى في ساعات الليلة التي أمضيناها معاً، تلك الليلة اللعينة التي سيأتي أوانها لاحقاً، تلك التي جعلَتني أظنّ نفسي سعيداً لأن جسد روساريو كان تحت جسدي. كلّا، فلو نظرتُ الآن إلى الوراء، لما راودني أدنى شكّ في أن أفضل لحظاتي معها هي تلك التي أمضيناها في البحث عن النور داخل النفق الذي لم تؤمن به روساريو. لم نصل إلى النور قطّ، ولكن المسيرة التي نجحنا في قطعها كانت مشرقة إلى حدٍّ جعلني مفعماً بالحياة. رويداً رويداً، غلب على روساريو الحنان بعد جزع، وفاجأتني بجوانب جديدة لم أظنّ أني سأعرفها يوماً، دع عنك أن



t.me/qurssan

أتذوّقها، حتى وإنّ حدّثتني نفسي بوجودها. لو تعرّف بها أحدهم في تلك الأيام، لما طاف بمخيّلته يوماً عنفها وعدوانيتها وصراعها مع الحياة. حتى أنا أوهمت نفسي بفكرة شفاء روساريو من ماضيها. كانت تكلّمني بنبرة أكثر عذوبة تلائم نظراتها، وبكلمات هادئة تحكي لي مشروعاتها، وكيف ستكون حياتها الجديدة، وكل ما عزمَت على تركه خلف ظهرها إلى الأبد، وما عزمَت على محوه من تاريخها للبدء من جديد. كانت تقول: «ستكون هذه جريمتي الأخيرة يا صديقي، سأقتل ماضيّ كاملاً».

استردّت جمالها الحاد، وأفسح الشحوب طريقاً أمام اللون الخلاسي من جديد، وعادت إلى فتنتها، إلى سراويل الجينز الضيّقة، وأقمصتها التي تكشف عن بطنها، وكتفَيْها العاريتَيْن، وابتسامتها التي تكشف عن كلّ أسنانها. عادت إلى ما كانت عليه في ما مضى، على الرغم من اختلافها. باتت أكثر جاذبية، وأكثر إقبالاً على الحياة، وأكثر إغراءً بالوقوع في حبّها، مع أن ذلك تحديداً هو الشيء الذي لم يتبدّل، فكيف لا أقع في حبّها وأنا الذي أحبّها كل يوم أكثر من سابقه، كيف لا أقع في حبّها وقد صارت بشخصها الجديد أشبه بأحلامي، وبما رجوتُ منها دوماً! كيف أحبّها ولا أضيع، كيف لا أعود «صديقها» حتى أغدو أنا رجلها الوحيد، الذي لا غنى عنه، حتى أغدو دافعاً، ضرورةً، غذاءً لها، جزءاً منها! كيف أخبرها بأن ذراعَيّ مُتلهّفتان لمعانقتها إلى الأبد، وبأن قبلاتي المطبوعة على وجنتها تودّ بلوغ ثغرها، وبأن كلماتي تخرج وقد اختُزِلَت إلى النصف! كيف أفسّر لها أنها كانت لي أنا على مدى ليالٍ طوال، أنها قد تغلغلَت في وجودي، إذ رحتُ أتخيّلها في ماضيّ، وأعلّق عليها الآمال في البقية المُتبقّية من حياتي! ومع أني رأيتُها جديدة، بمشروعاتها ومساعيها، وعلى الرغم من معرفتي بأن إميليو قد انكفأ على وجهه، وفيرني يبتعد عن أفكارها رويداً



t.me/qurssan

رويداً، وأشدّ الأشدّاء يتوارون هرباً من الحكومة... على الرغم من ذلك، ظلّت المعضلة قائمة. حتى وإن تغيّر كل شيء، فكل شيء عندي باقٍ على ما هو عليه، كما كان يومَ أفقتُ لأول مرة مذعوراً، وقد وقعتُ في حبّ روساريو المقصّ، على ما يبدو.

وإذا بتلك التي كانت في البدء خلوة عاصفة تغدو إجازة تمنّينا لو تدوم إلى الأبد. ومن دون مغادرة الشقة، كنتُ أشعر وكأني في جولة برفقة روساريو، ويدي في يدها. كنتُ أسمع صوتها بنبرته الجديدة، فأشعر وكأني وسط مرج أخضر، في مهبّ النسيم العليل، فاتحاً ذراعَيّ، كالطائرة الورقية أترقّب الريح. وددتُ لو تستمرّ الحياة على تلك الحال، من دون دخلاء، ومن دون أولئك السُكّان المزعجين الذي أقاموا داخل روساريو. بل وذهبتُ إلى حدّ الصفح عن نفسي لأني تمنّيتُ لأعزّ أصدقائي أن يضلّ سبيله، وأهملت أسرتي، وتخلّيت عن كل شيء من أجل امرأة، وفكّرت أن الأمر يستحقّ عناء الاستسلام. بل شعرتُ بأني مُخلّص، أكثر من كوني خائناً أو جاحداً، مُخلّص يُغفَر له كل ما أحدثه من أذى، لأنه يعمل باسم الحبّ. ثم عرفتُ أني قد نلتُ الغفران من باب الشفقة، فأولئك الذين خذلتُهم تفهّموا الخطأ الذي لم أرَه لأني كنتُ جزءاً منه، وإن لم أتأخّر في رؤيته طويلاً، فبعد ليالٍ طوال قضيتُها فاغراً فمي، منصتاً إلى روساريو وهي تتلذّذ بحكاياتها، ومشروعاتها، وأحلامها، بعدما طوّقتني بذراعَيْها كثيراً كي تورّطني في مساعيها الحميدة، بعدما خلتُها قد تعافت من دائها، بعد ذاك، أفقنا ذات ليلة على رنين الهاتف، فأجبت، أجبت بنفسي، حتى لا يبقى مجال للشك في الخطأ الذي اقترفتُه، ثم ذهبتُ إلى حجرتها كي أوقظها. قلتُ وأنا ما زلتُ آمل أن يكون خطأ من جانب المُتّصلة: «إنها امرأة. لم تقُل من هي».



t.me/qurssan

أضاءت روساريو المصباح الليلي، واستغرقَت في التفكير. خلتُ أنها تحاول كسب الوقت حتى تفيق، ولكن السبب الوحيد في ذلك الخدر الذي استحوذ عليها كان هو الاتصال الهاتفي.

«حوّل إليّ المكالمة»، قالت في خاتمة المطاف، ثم أردفَت بما هو أسوأ: «وأوصِد الباب».

وضعتُ سماعتي على مضض، إذ كنتُ أريد التحقّق من السبب في شعوري بالتوجُّس، غير أني لم أسمح لنفسي بشيء فجٍّ كهذا. فاستقررتُ على خيارٍ يستلزم قدراً أقل من الجرأة. وقفتُ إلى جوار بابها أسترق السمع، ولكني لم ألتقط الكثير، مُجرّد سلسلة من الـ«نعم... نعم... نعم»، تناهت إليّ ثم انسابت إلى الأرض، حيث انتهَت بي الحال أنا وروحي المعنوية بعد كل هذه «النّعَمَات» التي ختمَتها بعبارة صاعقة: «أخبريهم بأني ذاهبة في الحال». أحسستُ بها وهي تضيء الأنوار، وتفتح الجوارير والأبواب، وسمعت خرير المياه آتياً من صنبور دورة المياه. لا أذكر كم من الوقت مضى قبل أن تخرج مهرولةً وهي تحمل حقيبة السفر، ممسكة بمفاتيح السيارة، وقد بلغَت من الشرود والاستعجال حدّاً أعجزها عن رؤيتي قابعاً عند بابها مثل الكلاب. لم تودّعني ولم تترك رسالة، بَيْد أني لم أكُن في حاجة إلى شيء من تلك التفاصيل، لم أكُن في حاجة إلى أيّ تفسير، فها هي ذي الحياة تعود إلى مسارها.

«مرة أخرى»، قلتُ لنفسي، وأنا لا أقوى على النهوض.



t.me/qurssan

# 12

مجرجراً أذيال الهزيمة، كالحيوان الذي شعرتُ بأني قد صرتُ إليه، عدتُ إلى البيت. لم أُضطَرّ إلى التفوّه بحرف، إذ كان في وسع الناظر أن يقرأ على وجهي كل شيء، ولا بدّ أن ما كُتِب على وجهي كان يدعو إلى الرثاء، فبدلاً من التعنيف قُوبِلت بابتسامات ذاهلة وربتات على ظهري، مع أن شيئاً لم يخفّف عني شعوري بالغمّ. أحسستُ وكأني اصطدمت بالجدار وأنا أسير بسرعة فائقة، فذهلت إلى حدٍّ أعجزني عن توصيف مشاعري، وعن فهم الوضع الذي أفضى إلى تلك الصدمة الهائلة، حاولتُ ترتيب أفكاري من أجل تشخيص الداء الذي أُصِبتُ به، التشخيص الذي نجح في التوصّل إليه أحد أفراد أسرتي، لا أنا، حين طُرِحَت المسألة على مائدة الحديث، فقال: «لستَ مُدمناً على المُخدّرات، بل على الخراء».

السكوت علامة الرضا، وأنا اضطُرِرتُ إلى السكوت. آلمني الاعتراف بذلك، على الرغم من صحّته. لم أتحلَّ بالجرأة اللازمة لسؤالهم كيف يُشفى المرء من تلك العادة؟ وما العلاج؟ وأين؟ ومَن يستطيع مساعدتي؟! وفكّرتُ أن الوقت قد حان لكي تبدأ البشرية في إقامة أمكنة مُتخصّصة في علاج ذلك الداء بطريقة ما، إن لم يكُن لها وجود بالفعل، ذلك أن الشيء الذي كنتُ مُتأكّداً منه أني لست الحالة الوحيدة، بل تُقدّر أعدادنا بالملايين،



t.me/qurssan

نحن «آكلي الخراء»، نحن الذين نُضطَرّ للتماثل إلى الشفاء في صمت، أو نحتضر بجرعة مفرطة من الخراء، كما جرى في مرات كثيرة جدّاً. وعلى الرغم من ذلك، قلتُ لنفسي مُعزّياً: «لا بدّ أن الاستفادة من كل هذا الخراء ممكنة، فهو يُستخدَم سماداً».

والآن، أستحضر أهم اللحظات التي أمضيتُها برفقة روساريو، فيخطر لي أني لم أتعافَ من إدماني. فهأنذا مرة أخرى، مثلما كنتُ في كل مرة شعرَت فيها روساريو بالحاجة إليّ. لم أنجرف كما في سابق عهدي، وإن بقيت مرتهناً بمصيرها وكأنه مصيري أنا، إن لم يكُن هو مصيري أنا حقّاً.

ذات يوم قالت لي وهي مستغرقة في التفكير: «يا صديقي، أنا وأنت كالروحَيْن التوءمَين».

- «ولكننا مختلفَيْن للغاية، روساريو».

- «أجل، ولكنه أمر غريب، تأمّل إميليو على سبيل المثال».

سألتُها: «كيف هذا؟».

فحاولَت أن تفسّر لي الأمر: «هو أيضاً مختلف عني، ولكن الحال معه غير هذه الحال، أتفهم مقصدي؟».

- «لا أفهم شيئاً، روساريو».

- «بعبارة أصح، أنا وأنت كوجهَيْن لعملة واحدة».

- «أها!».

فقالت محتدمة: «ماذا تعني بـ"أها"؟! ألم تفهم؟».

بالطبع فهمتُ مقصدها، لكني لم أوافقها على ذلك التفسير. وكما هو دأبي، لم أجرؤ على البوح إليها بأنها لم تكُن مسألة تشابه، وإنما عاطفة، وبأنها ما دامَت ترى إميليو مختلفاً فذلك لأن مشاعرها مختلفة أيضاً،



t.me/qurssan

فالمرء يتشبّه بمن يحبّ في خاتمة المطاف. شعرتُ برغبة في البوح إليها بشيء من هذا القبيل، غير أنها انزعجَت من قولي «أها»، فتركَتني وحدي، وإن لم تذهب قبل أن تصارحني بحقيقتي: «أصبحتَ مُغفّلاً يا صديقي، وصار الحديث إليك غير ممكن».

كثيراً ما تركَتني على تلك الحال، وأنا على وشك أن أقول شيئاً غبيّاً لمداراة ما كنتُ أودّ قوله حقّاً. بتلك الابتسامة البلهاء المعهودة التي أرسمها معتذراً عن تصرّف بعينه، ومُقِرّاً بأنها على حقّ.

«لم أصبح مُغفّلاً، بل إنكِ أنتِ التي تركتِني على تلك الحال، يا روساريو المقصّ»، دار في خلدي.

بعد العودة إليهم، مرّت بضعة أيام، ثم عادت كعهدها في كل مرة. مكالمة الفجر، العبارات المراوغة التي تنمّ عن شعورها بالذنب، النبرة المتصالحة، «يا صديقي، يا صديقي العزيز»، التحية التي تبادرني بها من دون أسئلة ولا أجوبة، وما الداعي، ما دام كل شيء معروفاً، ما دام شيء لن يتغيّر. كانت روساريو تعاود ترتيب الأوراق المتناثرة على طاولة اللعب، تلك الأوراق التي ألقَت بها وهي في طريقها إلى الخروج. ولطالما عادت إلى هذا السؤال في خاتمة المطاف: «وماذا عن إميليو؟».

كنتُ أعرف ماذا يأتي في أعقاب السؤال، فأُبلِغها ببعض أخبار إميليو، في شيء من البرود، «إنه في تلك الأنحاء، لم أتحدّث إليه منذ وقت طويل»، فأكتفي بالمعلومات الضرورية لئلّا أبدو حريصاً على مرضاتها، أو فظّاً، أكتفي بالكلمات التي تحتاج إليها لتقول لي أن أطلب من إميليو الاتصال بها.

قبل أن تضع السماعة قالت: «اطلب من إميليو أن يتّصل بي». كما لو كان شيئاً عفوياً، كما لو كنتُ لا أعلم أنه الغرض الوحيد من اتصالها.



t.me/qurssan

ومع أننا وقعنا في حبالها مرة أخرى، فقد اضطُرّت روساريو إلى التحلّي بقدر أكبر من الصبر لنيل مرادها في تلك المرة. والحق أني كنتُ مثخناً بجرح مميت، جرح لم تُصِبني به أسلحتها، بل أوهامي، كما هو دأبي دائماً، لم يسبق لي أن تخيّلت نفسي قريباً منها إلى ذلك الحد، ولذا سقطتُ من فوق السحائب التي صنعتُها بنفسي سقوطاً مُدوّياً. أردتُ التعافي من الصدمة، وإذا حضورها يؤذيني بدل أن يساعدني على الشفاء. كثيراً ما تملّصتُ منها، وإن ليس بقدر ما أحتاج إليه حتى يبرأ جرحي. فلم أتملّص منها إلّا بما يكفي لتأجيل خضوعي، وإفهامها بأن شيئاً ما قد وقع. كانت نوبات غضب لا طائل يُرتجَى منها، خليقة بعاشق يحاول جذب الانتباه.

- «ماذا بك يا صديقي؟ لم تكُن هكذا».

لم يكُن انشغالها يذهب إلى أبعد من هذا السؤال، ولكن ماذا أتوقّع منها فوق ذلك، ما دمتُ لم أُجِبها بالحقيقة يوماً، ما دام غبائي قد بلغ أقصى مداه، وظللتُ أترقّب المعجزة التي سوف تسمح لها بأن تخمّن ما في دخيلة نفسي. تعبتُ من كل شيء، ولا سيما من ذاتي، بَيْد أن مشكلة الحب هي الإدمان، الأغلال، التعب الناتج عن عبودية السباحة ضد التيار.

لم تكُن استعادة إميليو يسيرة، إذ فرضَت عليه أسرته حصاراً، وأخضعَته للعلاج الطبي والنفسي، في محاولة منهم لانتزاع روساريو من رأسه وإن يكُن صعقاً بالكهرباء. في تلك الفترة قال لي إميليو: «لك أن تتخيّل حال بابا. يقول إنه لو رآني مع تلك المرأة مُجدّداً لأرسلني إلى براغ لإتمام دراستي».

- «براغ؟ في تشيكوسلوفاكيا؟».

- «تخيّل!».

غير أنه لم يذهب إلى براغ ولا غيرها: إذ انتصرَت روساريو مرة أخرى،



t.me/qurssan

عليّ أولاً، ثم عليه، كالمعهود. فلم يُجدِ نفعاً لا الوعيد ولا العلاج، والأسوأ من ذلك أن التجارب التي خضناها مع روساريو لم تنفعنا بشيء، لا أنا ولا إميليو، تلك التجارب التي خرجنا منها في حالة يُرثَى لها. كنتُ آبَى الردّ على اتصالها، وأمسك عن ذلك لئلّا أورّط نفسي معها. وبطبيعة الحال، كانت كلما ردّ عليها أحد أفراد الأسرة تنهي المكالمة، وتنتظر أن تردّ الخادمة، الوحيدة التي تواطأت معها، غير أني لم أبرح موقعي: «قولي لها إني لستُ هنا». «تقول إنها تعرف أنك هنا». «إذاً، فقولي لها إني مريض». «تقول إنها تعرف أنك لستَ مريضاً». «قولي لها إني قد مُتّ!». «تقول إياك أن تموت لأنها لا تعرف كيف تعيش من دونك». وهكذا كل يوم. أخذَت تليّن قلبي رويداً رويداً، وفاقَتني صبراً، وتحمّلَت، لأن ذلك أول ما لقّنَتها الحياة. حتى انهارت مقاومتي: «قولي لها إني لستُ هنا». «تقول إنها تنتظرك في المقابر». «في المقابر؟! كيف هذا؟! دعيني أتحدّث إليها».

- «ألو! روساريو! ماذا تفعلين؟!».

- «يا صديقي، أخيراً».

- «ماذا يجري، روساريو؟ ماذا تريدين؟».

- «أنا في حاجة إليك لترافقني إلى المقابر يا صديقي العزيز».

- «كيف هذا؟ من مات؟».

قالت بصوت حزين: «أخي».

- «كيف هذا؟ لقد مات أخوك منذ زمن».

- «أجل. ولكن عليّ الذهاب حتى أبدّل الأسطوانة من أجله».

توسّلَت إليّ حتى أرافقها، فاليوم ذكرى رحيل أخيها وهي لا تقدر على الذهاب وحيدة.



t.me/qurssan

المقابر وقطارات الملاهي تبثّ في نفسي شعوراً مماثلاً بالدوار الشهي. فذلك المكان الحافل بالموتى يخيفني، ولكن علمي بأنهم قد شبعوا دفناً يُدخِل الطمأنينة على نفسي. لا أدري أين يكمن السحر، ربما كان في الراحة التي نشعر بها متى عرفنا أننا لم نصل إليهم بعد، أو العكس تماماً، ربما كان يكمن في التعطّش إلى معرفة المشاعر التي تراود المرء هناك. أما مقابر سان پيدرو فهي بديعة على نحو مُميّز، زاهية البياض، وغنية بالرخام. إنها مقابر تقليدية، حيث يرقد الموتى بعضهم فوق بعض، بخلاف المقابر الحديثة التي تبدو أشبه بحقول الأزهار المُتكلّفة. كما أنها تضمّ أضرحة يرقد فيها بعض المشاهير مع أُسرِهم، تسهر عليها تماثيل هائلة تجسّد ملائكة الحراسة والصمت. مضَت بي روساريو إلى واحد من تلك الأضرحة، لا تحرسه الملائكة، وإنما شابّان. قالت بمهابة: «ها هو».

رآها الشابان فانتبها، وكأنهما حارسا شرف. سألتُها: «ومن هذان؟».

- «إنهما المُكلّفان بالاعتناء به».

- «وكيف هذا؟».

- «لقد نظّفنا كثيراً، ولكن ما زال أمامنا الكثير. زد على ذلك أن أتباع الشيطان قد أحبّوه إلى حدٍّ جعلهم يحاولون سرقة جثمانه ذات مرة. مساكين. أهلاً يا فتى أنت وهو، كيف حالكما؟».

أجابا في آن واحد: «أهلاً، روساريو. كيف حالكِ؟».

كنتُ مستغرقاً في ما أراه حتى ظننت الموسيقا آتية من الخارج، ولكن عندما فتحَت روساريو حقيبتها وسلّمَتهما أسطوانة، أدركتُ أن الموسيقا آتية من القبر نفسه، وإذا هي ضجة بشعة مصدرها نظام صوتي محفوظ خلف سياج ومُموّه وسط الأزهار. تبادلَت روساريو والشابان بضع كلمات، فسارا مبتعدَيْن قليلاً، بما يكفي لمنحها الخصوصية اللازمة من



t.me/qurssan

أجل الصلاة. اقتربتُ أنا الآخر، وإن لم أجثُ على ركبتَيّ. تمكّنتُ من قراءة شاهد القبر: «هنا يرقد رجل رائع»، وإلى جواره استقرّت صورة لچونيفي، ضبابية ومُصفرّة بعض الشيء. اقتربتُ أكثر على الرغم من الصوت المرتفع.

قالت روساريو: «إنها آخر صورة له».

- «يبدو ميتاً».

فقالت وهي تخفض صوت الجهاز قليلاً: «كان ميتاً بالفعل. التقطناها حين خرجنا برفقته. فبعد أن قُتِل أخذناه في نزهة، ومضينا به إلى أحبّ الأمكنة إليه، وأسمعناه الموسيقا، وسكرنا، ودخّنّا الماريجوانا، وفعلنا كل ما كان يروق له».

تبيّنتُ الصورة، يمكن تمييز بضعة وجوه مألوفة وسط الضباب، ومنهم فيرني، وآخر لا أذكر له اسماً، وروساريو نفسها. أما دايسي فلم أرَها. بدَت وجوههم أشدّ موتاً من الميت نفسه، وهم مُحمّلون بقوارير الخمر، وعلى أكتافهم مُسجّل صوت عملاق، في حين استقرّ چونيفي وسطهم، تسانده الأذرع. قالت روساريو: «مسكين».

ورسمَت إشارة الصليب. ثم رتّبَت قليلاً ذلك المزيج الغريب من الورود وأزهار القرنفل التي كانت تزيّن القبر. رفعَت الصوت مرة أخرى، وبلفتة حزينة أرسلَت إليه قبلة مُطوّلة، مفعمة بالحب، إلى حدٍّ جعلني أتمنّى لو كنتُ راقداً هناك.

- «إلى اللقاء، اعتنيا به من أجلي، اتفقنا؟».

رفع الملاكان الحارسان ذراعَيْهما بتحية الوداع، فرأيتُ أن كلاً منهما قد احتفظ بالمُسدّس تحت السرة والذخيرة في السروال الجينز. أمسكتُ بيد روساريو ومضيتُ مسرعاً، كنتُ أودّ الخروج من هناك،



t.me/qurssan

وقد بلغ بي الاضطراب مبلغاً أعجزني عن التفكير حين سألتُ روساريو بسذاجة: «أتحسبين أن أخاكِ سوف يرقد في سلام على وقع هذه الموسيقا الصاخبة؟».

فرأيتُ نظرتها الساخطة عَبْر نظارة الشمس، وفات الأوان على مصارحتها بأنها مُجرّد مزحة. وعلى الرغم من ذلك، فلم يكُن ردّ فعلها بالعنف الذي توقّعتُه، إذ لم تكُن تملك مثل هذه الرفاهية وهي التي سعَت طويلاً من أجل الوصول إليّ، الأمر الذي أدخل على نفسي شعوراً طيّباً.

«بأي حماقات تتفوّه يا صديقي!»، قالت وهي تفلت يدي، لتفسد عليّ طعم النصر الذي تذوّقتُه من فوري.

كانت تلك الزيارة ذريعة للعودة، لنكون معاً مرةً أخيرة، لأن ما بدأناه من ذلك الحين كان وداعاً طويلاً، ونهاية الرباط الذي وطّنتُ نفسي على معايشته إلى الأبد. ها قد عادت العلاقة الثلاثية مرة أخرى.

«الآن يجب علينا أن نتصرّف بطريقة سليمة، وأن نتوخّى الحرص»، قال لنا إميليو، فأجبتُه: «لا مشكلة من جانبي»، ثم أردفَت روساريو: «ولا من جانبي».

وإن لم يكُن ردّها مقنعاً كلّ الإقناع. كانت تلك وعوداً ساعدَتنا على تبرير العودة، إنها النوايا الحميدة التي يخدع بها المنتكسُ نفسه في كل مرة.

ظهر إميليو بعد أيام قلائل. لم أدرِ كيف كان لقاؤه بها تلك المرة، وإن حدّثني ظنّي بأنه كغيره من اللقاءات السابقة. من جانبه، أراد أن يعرف كيف كان لقائي بها، فحكَيتُ له ما جرى في المقابر. عند ذاك سألني واضعاً يدَيْه على كتفَيّ: «وهل رأيتَ اسم العائلة؟!».

فسألتُه أنا الآخر، غافلاً عما يعنيه تماماً: «أي اسم؟».

- «اسم عائلة چونيفي، وروساريو».



t.me/qurssan

- «لم أنتبه إلى أيّ من الأسماء».

قال وهو يحيط رأسي بيدَيْه: «أنت غبيّ حقّاً، كانت تلك هي الفرصة المواتية لنعرف اسم عائلة روساريو».

- «ولمَ تريد أن تعرف اسم العائلة؟ ما أشبهك بأمك!».

- «ليس الأمر هكذا. فمن الغريب ألّا يعرف الواحد اسم حبيبته، أليس كذلك؟».

- «روساريو المقصّ».

سلّم أمره قائلاً: «آه يا أخي! لماذا لا ترافقني حتى أرى الاسم بنفسي؟».

أجبتُه جاداً: «لأني لن أعود إلى هناك. فمن اقترب من ذلك الموضع كان مصيره الشيّ رمياً بالرصاص».

اقترحتُ على إميليو أن يفتّش حقيبة روساريو ما دام مُصرّاً على التحقّق من اسم عائلتها، وأن يلقي نظرة على تحقيق الشخصية الخاص بها أو غير ذلك من الأوراق، فسألني: «أتظنّ أن أمراً كهذا لم يخطر لي على بال؟ ألم تلاحظ أن حقيبتها لا تفارقها حتى وهي تغتسل؟».

قلتُ: «لا بدّ أن المُسدّس هو السبب».

- «من يدري بماذا تحتفظ في تلك الحقيبة فضلاً عن المُسدّس! ربما استطعت وهي نائمة...».

- «دع عنك ذلك، فنومها خفيف جدّاً...».

سألني إميليو وقد تغيّرت لهجته: «وكيف عرفتَ أن نومها خفيف؟».

«لأني لم أرفع عينَيّ عنها وهي نائمة»، دار في خلدي. «لأني رأيتُ عينَيها تتحرّكان وأجفانها مطبقة. لأني ما كدتُ أمسّ بشرتها العارية بيدي حتى فتحَت عينَيها فجأةً، لتُذكّرني بأنها لا ترغب في المزيد، وبأن ما كان



t.me/qurssan

بيننا لن يطول أكثر من ليلة واحدة، ولن يعدو أن يكون لعبة من ألعاب الأصدقاء، سهوة من سهوات السكارى».

«لأنها موسوسة للغاية...»، قلتُ لإميليو وأنا أتملّص من الذكرى، وأعود إليه مرة أخرى.

الآن أذكر أن الفرصة قد سنحَت لنا بعد أيام. إذ نزلَت روساريو لاستلام شيء عند المدخل تاركةً حقيبتها في متناول أيدينا. فراح إميليو يفتّشها بينما وقفتُ أراقب عند الباب، منتبهاً إلى حركة المصعد. ومن موضعي سألتُه: «ماذا جرى؟ ماذا وجدت؟».

- «مُجرّد تفاهات. المُسدّس، طلاء الشفاه، مرآة صغيرة...».

- «الحافظة أيها المُغفّل! فتّش الحافظة».

- «لا شيء في الحافظة أيضاً... مُجرّد صور للعذراء المعينة، والطفل يسوع، وچونيفي و... ابن العاهرة!».

- «ما الخطب!».

- «صورة لفيرني، الوغد!».

- «وماذا في ذلك؟».

- «ماذا تقصد بـ"وماذا في ذلك"؟ تحتفظ بصورة له ولا تحتفظ بصورة لي أنا. الآن ستسمع مني ما لا يرضيها».

أوصدتُ الباب وتركتُ موقع المراقبة، ثم أخذتُ الحقيبة من إميليو وقلتُ له أن ينظر إلى وجهي.

- «انظر، إميليو، لو فتحتَ فمك، لو قلتَ لها شيئاً، لصرنا في عداد الأموات، أفهمت؟».

- «ولكن، كيف يُعقَل أنها ما زالت تحتفظ بصورة لهذا الرجل؟!».



t.me/qurssan

كرّرتُ مُشدّداً على السؤال: «أفهمت؟!».

انتهى الأمر عند ذلك الحد. واضطُرّ إميليو أن يتجرّع الغضب والحيرة. من المُؤكّد أن روساريو عرفَت كيف تصون سرّها، حتى بات من المستحيل أن يعرف أحدٌ عنها أكثر مما تحكيه.

الآن وقد انتبهتُ إلى ذلك، فأنا لم أتساءل عما كان من أمر حقيبتها وسط الفوضى التي اندلعَت في الديسكو، أين هي؟ ومن احتفظ بها؟ ربما كانت محفوظة هناك، أو ربما أخذها أولئك الذين كانوا برفقتها... ولكنهم ولّوا هاربين جميعاً، لعلّهم سرقوها، تراها كانت لا تزال محتفظة بالمُسدّس؟ ربما سلبوها الحقيبة لتجريدها من السلاح، لا بدّ من التحقّق مما جرى لاحقاً.

الآن زادت الحركة في الرواق، تلفّتُّ لعلّني أجد وجهاً مألوفاً، لعلّني أجد الجرّاح الذي أجرى لها العملية، أو إميليو، ولكني لم أجد وجهاً مألوفاً غير وجه المُمرّضة المناوبة التي أفاقت من نومها أخيراً. أما العجوز فما زال يهوّم، وعقارب الساعة ما زالت تشير إلى الرابعة والنصف. نظرتُ عَبْر النافذة فرأيتُ الشمس قد طلعَت. يُحتمَل ألّا تتساقط الأمطار اليوم، ولكن عليّ شراء ساعة لنفسي في يوم من الأيام.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 13

قُبَيْل مقتل فيرني رأيناه يحوم حول شقة روساريو، وإن لم يجرؤ على الدخول إليها. كان يصفّ دراجته البخارية على بعد مربعَيْن سكنيّيْن تقريباً، ثم يتوارى خلف بضع شجيرات على مسافة أقرب إلى البناء. وعلى الرغم من كل شيء، رأيناه. في المرة الأولى ظنّناه سيدخل بمُجرّد أن يلمح إميليو خارجاً، ولكن لا. ظلَّ في الموقع نفسه على مدى الأيام التالية، وأخبرَتنا روساريو بأنه لا يبارحه حتى ساعة مُتأخّرة من ساعات الليل.

اقترحنا عليها: «ولماذا لا تنزلين لتعرفي ماذا يريد؟».

فأجابت: «ولماذا؟ فليصعد إلى هنا ما دام في حاجة إليّ».

قال إميليو: «شيء غريب جدّاً».

ثم قرّر فيرني التخلّي عن موقعه خلف الشجيرات وجلس على الرصيف المقابل. فلم ندرِ ما إن كان قد أظهر نفسه حين عرف أن أمره انكشف أو كان يتّبع استراتيجية بعينها، كل ما هنالك أنه كان يصل في الصباح الباكر، قبل أن تستيقظ روساريو، التي ما كانت تستيقظ في وقت مُبكّر جدّاً على كل حال، ويظلّ في موقعه حتى ينطفئ ضوء حجرتها. كان يقضي يومه في مراقبة نافذتها، شأنه في الديسكو، حيث كان يراقب إميليو وروساريو



t.me/qurssan

وهما يرقصان، بعد أن ضاعت من بين يدَيْه إلى غير عودة. كان إميليو يسأل مُتوجّساً: «ما خطب هذا الرجل؟ لعلّه وقع في حبها مرة أخرى؟».

«يا لك من واهم، إميليو!»، دار في خلدي. وكأن المرء قادر على انتزاع روساريو من قلبه، ثم ردّها من جديد. إن روساريو امرأة إذا وقع المرء في حبّها، ظلَّ على حبّها إلى الأبد. وإلّا، فما وجودي هنا في هذا المستشفى؟

الشيء الذي تأكّدتُ منه أن فيرني لم يفعل ما فعل سوى بدافع الحب، فلا دافع آخر يرغمه على تحمّل الشمس والمطر تحت نافذة.

أصرّ إميليو قائلاً: «لا يروقني هذا، لا يروقني ما يفعله ذلك الرجل».

رحتُ أدافع عنه، مدفوعاً بتواطؤ له ما يفسّره: «ولكنه لم يفعل شيئاً».

فأجابني إميليو: «بالضبط. هذا هو الشيء الذي لا يروقني».

كانت روساريو هي التي لم تحتمل الوضع، فلقد تعبَت من الشعور بأنها خاضعة للمراقبة، والشعور بأن الذنب في ما آلَت إليه حال فيرني يقع على عاتقها. تملّكَتها الحيرة، ولم تدرك السبب الذي جعله يمتنع عن الصعود إلى شقّتها، في حين أنها كثيراً ما دعته بيدها من النافذة، لم تدرك السبب الذي جعله يرفض الطعام الذي ترسله إليه مع حارس العقار، لماذا، ما دامت قد صاحت فيه مرة وهي بمفردها قائلةً: «فيرني، اصعد، ولا تكُن مُغفّلاً!». غير أنه ظلَّ على حاله، غير آبهٍ، وكأنه أصمّ أعمى، وكأن الجوع لا يغريه بالصعود.

وأخيراً قالت: «سأنزل».

فما كان من إميليو إلّا أن فقد صوابه، وشرع يلوّح بذراعَيْه قبل أن يتمكّن من النطق بكلمة واحدة. ثم نطق إميليو، وكان خيراً له لو أنه لم يقُل شيئاً.

- «تذهبين إليه، طبعاً، ولكنكِ لم تكلفّي نفسكِ حتى بالاتصال ولا



t.me/qurssan

الزيارة ولا السؤال عني، حين كنتُ في حالة يُرثَى لها لأنكِ قد نغّصتِ عيشي. أما هو فتذهبين إليه، طبعاً!».

قالت له وهي تلوّح بمفتاح قريب للغاية من وجهه، حتى ظننت أنها تنوي جرحه بالمفتاح: «اسمع، إميليو... اسمع، إميليو... لم ينغّص عيشك أحد، لقد وُلِدتَ على هذه الحال. اغرب عن وجهي، بدلاً من هذه المسرحية».

- «حسناً! ما دمتِ تريدين البقاء مع هذا الصعلوك، فأنا ذاهب، حسناً، ولكنكِ لن تري وجهي مرة أخرى، ولا حتى في أحلامك».

وقبل أن ينتهي إميليو من وعيده كان باب المصعد قد أُقفِل دون روساريو. فاختار هو أن ينزل على الدّرَج، بينما هرعتُ أنا إلى النافذة لئلّا يفوتني مشهد الختام. خرجَت روساريو أولاً، فرأيتُها تعبر الطريق، وهي تبطئ الخطا كلما اقتربَت من فيرني. ثم خرج إميليو، واستقلّ سيارته، وصفق الباب، ثم انطلق بأقصى سرعة. فتحتُ النافذة كي أسمع، فبدا لي أنهما لا يتكلّمان، أو تكلّما بالهمس، أو بالنظرات، كحديث المُحبّين. رأيتُها تجلس بجواره، كتفاً إلى كتف، ورأيتُه يتّكئ برأسه على حجرها، وكأنه يبكي. رأيتُها تستره بجسدها، كمن يحمي كائناً صغيراً من الخلاء. رأيتُهما على تلك الحال طويلاً. ثم رحتُ أفكّر في مدى صعوبة الحياة، وطابور العاشقين المُمتَدّ، وآخر المُصطفّين، ذلك الذي لا يرغب فيه أحد، وسألتُ نفسي ما إن كنتُ أنا الأخير أم فيرني. ثم رأيتُها وقد أخذَت بيده، وساعدَته على النهوض من دون أن تفلت يده، ومضَت به إلى البناء، حيث غابا عن ناظري حتى رأيتهما يدخلان إلى الشقة ويتّجهان إلى المطبخ، من حيث تناهى إليّ رنين الصحون وأدوات المائدة، ثم ران صمتٌ ثقيل، ذكّرني بأنه ما اجتمع اثنان إلّا وصار ثالثهما دخيلاً.



t.me/qurssan

تذكّرتُ ما قالته لي روساريو ذات مرة: «يا لسخرية الحياة يا صديقي! يومَ قدّم فيرني أفضل إنجاز له، خسرني أنا».

سألتُها: «بسببهم هم، أليس كذلك؟».

فأجابتني: «صحيح. كان ذلك يومَ تعرّفتُ بهم».

قلتُ لائماً: «ما زلتِ لم تحكِ لي كيف تعرّفتِ بهم».

- «بل حكيتُ لك طبعاً».

كان ذلك حين سافر چونيفي وفيرني معاً إلى بوغوتاه لتنفيذ مهمة عهد بها «المكتب» إليهما، فأُرسِلَت النساء إلى بيت ريفي ريثما ينجز الفتيان مهمتهم، على أن يلتقوا لاحقاً. كان البيت الريفي ملكاً لهم هم. حكَت لي روساريو قائلةً: «وهناك ظهروا، قرب منتصف الليل. وصل چونيفي وفيرني قبل ذلك، وكُنّا مستغرقين في المرح الصاخب. هم أيضاً بدَت عليهم الرغبة في الاحتفال. وصلوا في غاية السعادة، وسط الموسيقا، والمُخدّرات، والمزيد من النساء، إلى آخره، أنت تعرف ما أقصد. على كل حال، كانوا في غاية اللطف والودّ، ولا سيما معي».

كان في وسعي أن أتخيّلهم، كان في وسعي أن أراهم يحومون كالعقبان حول الجيفة، ولا أعني أن روساريو تشبه الجيفة، ولكن الغضب استحوذ عليّ حين عرفتُ أنهم كانوا يرمقونها بنظرات مفعمة بالشهوة، وقد انعكسَت الشراهة على بطونهم الهائلة، وضحكاتهم المقتضبة الخبيثة، ولم أخطئ في ما ذهبتُ إليه، فهي نفسها أخبرَتني بما سمعَت. قال أشدّهم جميعاً: «وماذا عن هذه الفتاة بارعة الجمال، من تكون؟ أحضِروا إليّ هذه الكعكة».

ولأن «الكعكة» تعلم من يكون، وهي التي لم تكُن بالكسولة ولا البلهاء، فقد تركَت نفسها. من المُؤكّد أنها بدّلَت مشيتها كما تفعل كلما



t.me/qurssan

رغبَت في إظهار نفسها، ومن المُؤكّد أنها رمقَته كما تفعل كلما أرادت شيئاً، وابتسمَت له، من المُؤكّد، كما ابتسمَت لي أنا الآخر ليلةً أرادت مني شيئاً.

سألتُها: «وماذا عن إيرلي؟ ماذا بدا على وجهه؟».

فصوّبَت قولي: «فيرني. لم أرَ وجهه».

«بل إنكِ لم تقدري على النظر إليه، يا روساريو المقصّ»، لم أقُل لها ذلك، وإن كنتُ أعلم أنه ما جرى، لأنها ما كانت تنظر إلينا نحن أيضاً كلما ذهبَت برفقتهم، ولأنها لم تقدر على النظر إليّ حين وجدَت نفسها عارية إلى جواري، من دون حتى ملاءة تكسو جسدَيْنا.

عاودتُ سؤالها: «وماذا عن چونيفي؟».

فقالت روساريو إنها سمعَته يقول: «دعوا الصغيرة تقرّر بنفسها».

لم أكُن قد تعرّفتُ بها، وعلى الرغم من ذلك، أعلم أننا خسرناها جميعاً يومذاك. بل إنها هي نفسها خسرَت ما كانته في ما مضى، وإذا كل ما كانته قد اختُزِل في نسخة مختصرة من وعيها. وابتداء من تلك اللحظة اتّخذَت حياتها ذلك المنعطف الذي انتشلها من الحرمان، ووضعها بجوارنا، إلى هذا الجانب من العالَم، الذي يختلف كثيراً عن ذلك العالَم الذي تركَته، في ما عدا المال.

- «ابتداءً من تلك اللحظة تغيّرَت حياتي يا صديقي».

سألتُها وأنا ما زلتُ غاضباً: «للأفضل أم للأسوأ؟».

فقالت: «ودّعتُ الفقر، وليس هذا بالشيء القليل».

بعد أن صعدَت روساريو إلى الشقة ومعها فيرني، ظلَّ الأخير هناك ما لا يقلّ عن أسبوع. فنأيتُ بنفسي قليلاً، وإن لم أبتعد بقدر إميليو، الذي



t.me/qurssan

غاب عن الأنظار تماماً. ظللتُ أتواصل وإياها عَبْر الهاتف يومياً، وأزورها من آنٍ إلى آخر. لم أسألها عن شيء، لا عما يجري بينها وبين فيرني، ولا عن السبب الذي جعله يبقى معها، لم أرغب في معرفة أي شيء، ولا حتى في تصوّر ما يجري بينهما، سواء أكانت تشاركه الفراش أم كانت قد اتّخذَت قرارها بالعودة إليه أم غير ذلك. ولا حتى لمتها على ما يجري، فبأي حقّ، ما دامت ليلة واحدة لا تخوّلني الحق في أي شيء. ولكن ما تأكّدتُ من صحته هو الهاجس الذي حدّثني بأن فيرني يستنفد أنفاسه الأخيرة في هذه الحياة، كما تأكّد لي فوق ذلك أن لا أحد يضمن أي شيء هنا. وأقول ما أقول لأني في واحدة من زياراتي إليها تلك الأيام تسنّى لي إنقاذها من مأساة مُحقّقة، أو نوبة من الذعر، إذ تكفي ثانية واحدة ليختار القدرُ بين الذعر والمأساة في أغلب المرات. كانت من عادة روساريو أن تغلي الرصاص في مياه مباركة كلما عزمَت على استخدامه، كعادتها التي أخذَتها عن رفاقها. في تلك المرة نسيَت أن ترفعها عن الموقد، فتبخّرَت المياه بطبيعة الحال. وإذا بي أجد الرصاص يتراقص داخل القِدر. لا أدري كيف واتتني الجرأة ولا كيف سارعتُ برفع الرصاص عن النار ووضعه تحت خيط من الماء البارد. تمكّنتُ من التفكير في الأمر برمّته خلال ثانيتَيْن، تصوّرتُ روساريو وهي تدخل إلى المطبخ، فيصيبها الرصاص في انفجار مجنون. تصوّرتُ نفسي ممسكاً بالقدر الهادرة، وفجأة، بووووم! قبل الوصول إلى الماء. تصوّرتُ نفسي وروساريو وقد انطلق علينا الرصاص من الموقد، فارتمينا على أرض المطبخ جثّتَيْن هامدتَيْن. ذهبتُ إليها ممتقعاً، ملتهب اليدَيْن، وكأن الانفجار قد وقع حقّاً. فقلتُ لها بصوت واهن: «روساريو، انظري!».

- «ماذا جرى لك؟».



t.me/qurssan

- «الرصاص».

- «أيّ رصاص؟».

ولكن ما لبثَت المقذوفات أن ردّت إليها الذاكرة.

- «ابن العاهرة، الرصاص!».

ثم هرعَت إلى الخارج وذهبَت إلى المطبخ من دون أن تسألني عما كان من أمر الرصاص. لا بدّ أنها اطمأنت حين رأته مغموراً في الماء الذي بلغ حافة القدر. عادت فوجدَتني مستلقياً على الفراش، رافعاً يدَيّ، فاتحاً راحتَيّ، كما لو كنتُ أترقّب أن يمرّر لي أحدهم الكرة من السماء. قالت، وهي لا تعير يدَيّ انتباهاً: «لا أدري ماذا دهى رأسي».

- «فيمَ ورّطتِ نفسكِ، روساريو؟».

- «لا شيء يا صديقي. هذا الرصاص ليس لي أنا. لقد وعدتُك بأن أتغيّر».

خيّم علينا الصمت فيما رحنا نتبادل النظرات المباشرة. نظرتُ إلى عينَيها مُفتّشاً عن الحقيقة، فنظرَت إلى عينَيّ كاشفةً عن الحقيقة. وعلى الرغم من ذلك، على الرغم من نظرتها الصافية، فأنا ما زلتُ لم أدرك سبب وجود ذلك الرصاص في مطبخها. وأخيراً، لم تتحمّل روساريو ثقل عينَيّ.

- «إنه رصاص فيرني».

تبدّلَت لفتاتُها. فتراءى لي وكأنها على وشك البكاء. راحَت تتلمّس بيدها بحثاً عن موضع للجلوس، حتى عثرَت على ركن الفراش. سمعتُها تلتقط أنفاسها، وشدّت بإحدى يدَيْها على الأخرى، كما لو أنها تتشبّث بيد شخص آخر، لمُجرّد أن تبوح لي بما لم تقُله يوماً.

- «أنا خائفة يا صديقي».

اتكأتُ بمرفقَيّ حتى أعتدل على الفراش، وأنا ما زلتُ فارداً يدَيّ، وما



t.me/qurssan

زلتُ أحسّ كما لو كانتا جمرتَيْن مُتّقدتَيْن، غير أن ما بدر مني لم يكُن كافياً لنزع الخوف من نفس روساريو.

- «ما الخطب، روساريو؟».

رأيتُ أصابعها تعبث بالدلّاية المُعلّقة في معصمها، رأيتُها تنظر إلى الجانب الآخر، في محاولة لكسب الوقت قبل أن تجيبني، وتستجمع قواها لئلّا يتهدّج صوتها، في انتظار أن تهدأ خفقات قلبها.

- «أخاف أن يقتلوا فيرني يا صديقي. لقد أوقعوا به، والآن يريدون أن يقتلوه».

لم أقوَ على التفوّه بكلمة واحدة. فأطرقتُ مُفتّشاً عن عبارة سريعة لأخفّف عنها شعورها بالخوف. فلم أجد كلمات أتصدّى بها لذلك الحدث الوشيك، لم أجد شيئاً أغذّي به أمل روساريو، ولا حتى كذبة واحدة.

- «لم يبقَ لي سوى فيرني».

«ربما لم يبقَ لكِ سواه من ماضيكِ، روساريو، لأنكِ إن شئتِ، بقيتُ أنا لكِ إلى الأبد، وما احتجتِ سواي»، هكذا قلتُ لنفسي في صمت، مُتألّماً لأنها قد استبعدَتني. وإن وجب عليّ الاعتراف بأني رحتُ ألتمس الطمأنينة في شعوري بالأنانية والغيرة. فأنا حين تصوّرتُها وحيدة، ليس لها من يحميها، أو من يسعى إلى تملّكها، لم أملك تجنّب الشعور بشيء من الراحة. كانت وحيدة، معي أنا، جزيرتها الوحيدة.

ثم إنها سألَتني بغتة، مُحوّلة دفة الحديث: «لماذا أنت في هذا الوضع؟».

- «هذا الوضع، كيف؟».

فأوضحَت وهي تقلّدني: «تفرد يدَيْك هكذا، وكأن أحدهم سوف يمرّر لك الكرة».



t.me/qurssan

- «أحرقتُ يدَيّ. بالقِدر».

وإذا قهقهة مُدوّية تمحو آثار المأساة البادية عليها، وتردّ لها الجمال ولعينَيْها البريق. قالت: «دعني أُلقِ نظرة».

دنَت مني، وأخذَت يدَيّ في نعومة بدَت غريبة عنها. ثم قرّبَتهما من فمها وشرعَت تنفخ. برّدَت يدَيّ بهواء بارد، فخطر لي أن في جوف روساريو جليداً بحق، جليداً لا يذيبه شغفها ولا توتّرها، جليداً يحافظ على دمها مُثلّجاً لئلّا تنثني عزيمتها عما تفعله أبداً.

- «إنك مُغفّل حقّاً يا صديقي».

ثم طبعَت قبلة على ظاهر يدي وأردفَت: «ولهذا أحبّك».

«لأني مُغفّل». لم أدرِ ما إن كان يجب عليّ الضحك أم البكاء. «ملعونة أنتِ»، لعنتُها في خاطري، أما هي فاستبْقَت يدَيّ بين يدَيْها، وراحت تنفخ فيهما من دون أن تنظر إليّ، وتبتهج بضحكة ساخرة جعلَتني أشعر بأني أكثر غفلةً مما وصفَتني. ولكن بعد ذلك، حين أغمضَت عينَيْها ووضعَت أصابعي على وجنتها، وبدأت تربّت على بشرتها بأصابعي، وتداعب نفسها بتلك الرقة التي ما زالت تبدو لي غريبة عنها، خطر لي أن استمرار ذلك الشعور يستحقّ العناء.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 14

ولكنهم قتلوه على كل حال. لم أدرِ متى غادر شقة روساريو، ولم أدرِ في أي شيء ورّط نفسه. لم نعاود الحديث عنه. تراءى لنا أن حياتنا قد عادت إلى مسارها الطبيعي، وأمضينا أسبوعَيْن غلب عليهما الهدوء. طلب إميليو الصفح من جديد، وكان له ما طلب. أما أنا، فمن دون أن أطلب شيئاً قُدّمَت لي جرعة الخراء اليومية، فأكلتُها. رأينا روساريو مستغرقة في التفكير. كان إميليو على ما يرام، في حين كنتُ أنا على غير ما يرام. ذات نهار، بعد أن قضينا الليلة في شقتها، وصلَت الجريدة فوجدتُ صورة فيرني في صفحة الحوادث. رأيتُها أولاً، إذ لم يكُن إميليو وروساريو قد استيقظا بعد. قرأتُ الخبر الذي ورد مرفقاً بالصورة، فقد جاء ذِكره على أنه مجرم في غاية الخطورة، صفّته الشرطة في عملية أمنية. عاودتُ النظر إلى الصورة لأتأكّد مما قرأت، كان هو، باسمه واسم عائلته والرقم المكتوب على صدره، لئلّا يُترَك مجال للشك في خطورته وسجلّه الحافل بالسوابق. هرعتُ إلى حجرتهما، وإن استوقفني حسنُ التمييز. كان عليّ التفكير في روساريو، كيف أبلغها بالخبر، وكيف سيكون ردّ فعلها. كان عليّ الحديث إلى إميليو أولاً، والتنسيق في ما بيننا، غير أنه كان لا يزال نائماً. ألصقتُ أذني بالباب لعلّني أسمع ما يدلّ على يقظتهما،



t.me/qurssan

ولكن لا شيء، مضى الوقت من دون أن يسفر عن شيء، فهما لا يزالان مستغرقَيْن في النوم. ما عدتُ أتحمّل أكثر مما فعلت، فطرقتُ الباب. أجابني إميليو بغمغمة مبهمة. فقلتُ من مكاني بالخارج: «إميليو، مكالمة هاتفية من أجلك».

ما كدتُ أقولها حتى هرعتُ إلى الصالة ورفعتُ السماعة، قبل أن يضع إميليو سماعته إن لم يجِبه أحد، فأدركتُه وهو في آخر «ألو»، وقلتُ كاتماً صوتي: «إميليو! تعالَ إلى الخارج فنحن في حاجة إلى الحديث».

فسألني وهو شبه نائم: «وأين أنت؟».

- «هنا أيها المُغفّل! ولكن لا تقُل إني أنا المُتحدّث».

تعذّر عليّ الكلام بسبب طنين الهاتف. عاود إميليو سؤالي: «ولماذا لم تدخل إلى الحجرة؟».

- «لا أستطيع أيها المُخنّث. تعالَ إلى الخارج فنحن في حاجة إلى الحديث».

- «دعني أنَم».

- «إميليو!».

وانطلق طنين الهاتف معلناً انشغال الخط، ذلك الطنين الذي وجدتُه باعثاً على الجنون، وأنا غارق في اليأس.

- «إميليو! لقد قتلوا فيرني».

بعد مضيّ ثوانٍ معدودة، وكأن المحادثة لم تنقطع، حضر إميليو إلى الصالة، أشعث الشعر، فاتحاً عينَيْه بشدّة على الرغم من انتفاخهما.

- «ماذا قلت؟!».

- «انظر».

أخذ إميليو الجريدة قبل أن أتمكّن من وضع إصبعي على الصورة. ثم



t.me/qurssan

جلس بالتصوير البطيء وهو يطالع الخبر. أخذ يفرك عينَيه ليزيل عنهما الغشاوة التي يخلّفها النوم، وحين فرغ من القراءة نظر إليّ ذاهلاً. قلتُ له: «هيّا، ارتدِ ثيابك، فالأمر خطير».

- «ومن يخبرها؟».

السؤال الذي سبق أن طرحته على نفسي. لم يكُن الأمر الخطير عندنا موت فيرني، وإنما ردّ فعل روساريو. كُنّا نعرفها جيداً، ونعرف أن موتاً كهذا سوف يؤدّي إلى سقوط الكثير من الموتى، وليس من الغريب أن نكون ضمنهم نحن أيضاً. قلتُ له: «أنت، فأنت حبيبها».

- «أنا؟! كيف وهي على استعداد أن تستأصل خصيتَيّ لو فعلت! ألا ترى أني لم أكُن أحبّ هذا الشخص. أخبرها بنفسك، فثقتها فيك أكبر».

ها هي ذي القصة نفسها تتكرّر. «ثقتها فيّ أكبر»، وكأن تلك الثقة قد نفعَتني بشيء، بالعكس تماماً، كانت تعرقلني، وتجعلني أقف من روساريو موقف الصديقات. كان ذلك الغبي يمنحني إياها ثم ينتزعها مني وفق ما يلائمه. اللعنة على تلك القصة!

قلتُ له وأنا أستشيط غضباً: «طبعاً! فهي تثق فيك ما دام الغرض أن تلتهم جسدها، أما لمواجهتها، فلا!».

الآن بدأ يحتدّ هو الآخر: «ولكن، هل أنت مُغفّل أم ماذا؟! ألا ترى أنها قد تحسبني أنا الذي حرّضتُ على قتله، ألا ترى؟!».

- «طبعاً! نسيتُ أني أنا المُغفّل هنا، وأنا الذي يجب عليه السكوت، الذي يتحمّل عواقب كل شيء، الذي يجب عليه الاكتفاء بالمشاهدة، الوحيد الذي يُؤتمَن... ولكنه يُؤتمَن على أكل الخراء!».

سألني إميليو: «كيف هذا؟ ماذا تقول؟».

فلم أدرِ بماذا أجيب، بل رحتُ أترقّب أن يُخرِجني الغضب من هذا



t.me/qurssan

الموقف، مثلما ورّطني فيه. وسواء أكان ذلك في مصلحتي أم ضدّها، لم أدرِ بماذا أجيب في تلك اللحظة، فاضطُرّ كلانا إلى السكوت، وفي وجه المفاجأة نسينا الصراخ.

«ماذا يجري يا فتى أنت وهو؟»، سألَت روساريو، وهي تنقّل عينَيها بيني وبينه. فقلنا بصوت واحد: «روساريو!».

سرى إلينا حَرٌّ بعد برد، واضطراب بعد جمود. نظرنا أحدنا إلى الآخر بحثاً عن إجابة، إشارة، ضوء، معجزة، أي شيء يطلق سراحنا من تلك العقدة المباغتة. ولكن شيئاً لم يحدث، في ما عدا الصمت الثقيل الذي كسرَته روساريو مرة أخرى بسؤالها: «ماذا يجري يا فتى أنت وهو؟».

أشرتُ لإميليو بعيني حتى يُطلِعها على الجريدة. تجعّدَت أوراقها بعض الشيء في أثناء الخلاف الذي دار بيننا، فحاول إميليو أن يمسّدها بيدَيْه قليلاً، ثم سلّمها الجريدة من دون أن ينبس بكلمة. فتلقّتها وهي لا تفهم جيداً ما الخطب، وإن كنتُ أظنّ أن حدسها قد أنبأها بشيء ما، فقبل أن تنظر إلى الجريدة جلسَت وأزاحت شعرها خلف أذنها وتنحنحت. جلستُ وإميليو أيضاً، فمن الأفضل أن نستند على شيء لمواجهة ما هو آتٍ، بَيْد أن الانفجار الذي توقّعناه لم يأتِ، وإنما رأينا عليها ردّ الفعل الذي قد يصدر عن أي شخص إزاء خبر كهذا. خفضَت روساريو وجهها، ودفنَته بين يدَيْها، ثم أجهشَت باكيةً، بصوتٍ خافت في أول الأمر، وهي تسيطر على النحيب، ثم راحت تبكي بقوة، بصراخ مختنق، مغلوبة على أمرها في وجه الخبر. ظللتُ وإميليو نتبادل النظرات، كُنّا نودّ لو عانقناها، وقدّمنا لها أكتافنا كي تستند إليها، وإن كُنّا نعرف حساسية روساريو المفرطة من مظاهر العطف التي في غير محلّها. في حين قالت هي بكلمات مبتسرة: «كنتُ أعرف. كنتُ أعرف».



t.me/qurssan

ولكن مهما بلغ يقين المرء من الموت، فهو لا يألفه أبداً. كلنا يعرف أن الموت مصيرنا، ولكن...

كان الأمر أشدّ وقعاً في حالة روساريو، ذلك أن الموت هو طعامها اليومي، والخبر الأكثر تكراراً، بل إنه علّة وجودها. سمعناها غير مرة وهي تقول: «لا يهمّ كم نعيش، وإنما كيف نعيش»، فكُنّا نعلم أن تلك «الكيف» تعني المجازفة بالحياة يومياً لقاء بضعة بيسوات من أجل الحصول على التلفزيون، والثلاجة الفاخرة، وإضافة الطابق الثاني إلى البيت. بَيْد أني حين رأيتُها وهي على تلك الحال، أدركتُ ديمقراطية الموت حين يوزّع الألم بين الناس.

ومن دون أن ترفع روساريو رأسها، مدّت يدها بيني وبين إميليو على وجه التحديد، إذ لم تكُن يدها أقرب إليه ولا إليّ، فكان إميليو هو الذي استغلّ الحق المُخوّل له كونه حبيبها، وأخذ بيدها. على الرغم من ذلك، كانت روساريو في حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك، فقالت لي: «وأنت أيضاً يا صديقي».

وشعرتُ بأن الوقوع في حبّها أكثر مما وقعتُ ضربٌ من المحال.

شدّت على يدَينا بقوة. كانت يدها مُخضّلة بدموعها، باردة كهواء أنفاسها، مرتجفة، مع أنها شدَّت على يدَيْنا بقوة. وبيدها الأخرى راحت تمسح عينَيْها، اللتين لم تكفّا عن البكاء، وتزيح الشعر المنسدل على وجهها، وتتحسّس القلب الذي يكاد ينخلع من مكانه. وباليد نفسها لملمَت الجريدة التي سقطَت منها، فقرّبَتها إلى ثغرها، لتطبع قبلة مُطوّلة على صورة فيرني. ثم ظهرَت روساريو التي كانت خافية عن العيون، تلك التي لم تسمح لها الصدمة بالظهور، روساريو الحقيقية، وقالت: «سأقتلهم».



t.me/qurssan

أرخيتُ أنا وإميليو يدَيْنا. وإذا غمٌّ يداهمني ويتركني أعزل فوق مقعدي، وشعور بالهزيمة يتملّكني، فلم ينتزعني منه ألّا إميليو حين سأل: «أتقتلوننا نحن؟».

فنظرتُ إليه أنا وروساريو، وشعرتُ حينئذٍ برغبة في قتله فعلاً، غير أني حين لمحتُ عليه الخوف الذي أفسد وسامته، شعرتُ بدلاً من ذلك برغبة في الضحك. لم أضحك لأن الموقف ما كان يحتمل المزيد من الخلط في المشاعر. أما روساريو، فلم تمتنع عن وصفه بما يستحقّ: «مُغفّل».

ثم دفنَت وجهها بين يدَيْها مرة أخرى، وعادت إلى البكاء بينما هي تردّد «سأقتلهم». جاء كلامها غير مفهوم لأن صوتها ما كاد يتجاوز شفتَيْها حتى خبا. وعلى الرغم من ذلك، كان السامع يتبيّن من كلامها أن روساريو تريد قتلهم.

طلبَت منا أن نتركها وحيدة، لأنها ترغب في الراحة، وتحتاج إلى التفكير، وترتيب مشاعرها، تلك العلل التي نتذرّع بها حين يقف الآخرون عثرة في طريقنا. كان من الممكن أن نتفهّم عدم رغبتها في وجودنا بجوارها، مع أن الأمر محفوف بالخطر. كُنّا نعرف ما فعلَته في مواقف مشابهة. ومع ذلك انصرفنا، ولم نقُل لها شيئاً، إذ لم يكُن هنالك ما يُقال متى استقرّ أمرٌ في رأس روساريو. ليلتئذٍ، قبل أن آوي إلى الفراش، اتّصلتُ بها مُتعلّلاً بالسؤال عن حالها، وإن كنتُ أريد التحقّق من بدء روساريو في تنفيذ مُخطّطها الانتقامي. وبالفعل، لم تكُن هناك. أجابني جهاز الردّ الآلي، فتركتُ رسالة طالباً منها التواصل معي على وجه السرعة، لأن لديّ أمراً مُهمّاً لأخبرها به، في حين لم يكُن لديّ في حقيقة الأمر سوى شعور بالخوف عليها، ولذا خطر لي أن أثير اهتمام روساريو بمعلومات لا وجود لها. لم تتّصل بي في تلك الليلة، ولا نهار



t.me/qurssan

اليوم التالي، حين تركتُ لها رسالة أخرى، ولا في الأيام التالية. عندئذٍ وحسب، حين ذهبتُ إلى البناء الذي تسكن فيه للسؤال عنها، على أمل أن تكون هناك، على أمل أن تكون ممتنعة عن استقبال المكالمات لا غير، في تلك اللحظة وحسب، عندما أخبرني حارس العقار بأن روساريو قد خرجَت في أعقابنا يومذاك، أحسستُ بتلك القشعريرة التي تُؤكّد صحة الهواجس. ختم حارس العقار حديثه قائلاً: «طلبَت مني مراقبة شقّتها لأنها سوف تتغيّب طويلاً».

ذهبتُ مباشرة إلى بيت إميليو، الوحيد الذي يسعني أن أشاركه ظنوني، حتى وإن لم أُفضِ إليه بأكثر من نصفها. غير أني بدلاً من تلقّي دعمه، فزتُ بوابلٍ من الشتائم المُوجّهة إلى روساريو، الشتائم التي صبّها على رأسي أنا بدلاً منها، ولم يسعه الانتظار حتى يلقيها في وجهها.

- «لا أفهم ذلك الهوس اللعين بالاختفاء عن الأنظار من دون تنبيه! ماذا يضيرها لو أنها رفعَت سماعة الهاتف اللعين وقالت إنها ذاهبة!».

حاولتُ أن أقول: «أنا لا...»، ولكنّه قاطعني قائلاً: «طبعاً! فأنت القوّاد الذي يسمح لها بكلّ شيء! أراهن على أنها اتّصلَت بك وودّعَتك أيضاً. لم أفهم تلك العلاقة التي بينكما يوماً!».

فكرّرتُ المحاولة: «أنا لا...».

- «ولكن لا يهمّ! إذا اتّصلَت بك فقُل لها إنها الآن ستعرف من أنا، وقُل لها نيابةً عني أن تذهب وتأكل الخراء».

لم يترك لي مُتّسعاً من الوقت لأتفوّه بحرف واحد، أو حتى لأُخرِس لسانه بلكمة من يدي، كما يستحقّ، بل إنه تركني واقفاً عند مدخل بيته بكلّ ما تملّكني من مشاعر الجزع، تركني لا أدري ماذا أعمل وإلى أين أتوجّه، تائهاً تماماً، لا أعرف حتى كم الساعة.



t.me/qurssan

«أيّ شيء غريب! طلع النهار والساعة ما زالت تشير إلى الرابعة والنصف»، قال العجوز الجالس أمامي.

جعلني صوته أفتح عينَيّ، وردّني إلى وعيي. كان محقّاً، فقد طلع النهار، وتقدّم أيضاً، لا بدّ أن شيئاً ما قد جرى، مضى وقت طويل، ولا بدّ أن شيئاً ما قد عُرِف، المشكلة أن المكان الآن خالٍ من جميع أولئك الذين يمكن سؤالهم، اختفَت المُمرّضة، ولم أجد من يمكنه أن يفيدني بشأن روساريو، مع أن قاعة الانتظار والأروقة بدأت تمتلئ بالحضور. كان شيئاً غريباً، إذ خلا المكان من أصحاب الزيّ المُوحّد، وإن لم يبدُ لي من الغريب أن يتخفّى الأطباء عن الأنظار في تلك المستشفيات. هممتُ بالوقوف، فاستوقفني العجوز وبادرني قائلاً: «لا تشغل بالك، سأتحقّق من حالهما».

ربما كان يعرف مدى أهمية تمرين استحضار الذكرى هذا. شعرتُ بأنه يطلب مني العودة إلى إغماض عينَيّ، والرجوع إلى حيث تركتُ روساريو عندما قاطعني. بَيْد أني قد نسيت. كثيرة كانت روحاتنا وغدواتنا، حتى شقّ عليّ استحضار الذكريات بدقة. والآن، لا أرغب في شيء سوى رؤيتها من جديد، والنظر إلى نفسي في عينَيْها مرة أخرى، هاتين العينَيْن الثاقبتَيْن اللتين انقطعتُ عن رؤيتهما منذ ثلاثة أعوام. أرغب في الشدّ على يدها لتعرف أني هنا، وأني سوف أظلّ هنا إلى الأبد. ولو أغمضتُ عينَيّ مرة أخرى، لما أغمضتهما لأستحضر الذكرى، وإنما لأحلم بالأيام الآتية مع روساريو، وأتخيّلها تعيش هذه الفرصة الجديدة التي وهبَتها الحياةُ لها، وأتخيّل نفسي أعيشها معها وقد نذرنا نفسَيْنا لنحقّق ما لم نجد من الوقت مُتّسعاً لتحقيقه في ليلة واحدة، تلك الليلة الوحيدة التي تستحقّ أن أغمض عينَيّ دائماً لأتذكّرها بالقوة نفسها.



t.me/qurssan

«روساريو، لم تجيبيني»، أعتقد أن كل شيء قد بدأ هكذا.

كانت عذبةً، رقيقة، فلم أدرِ ما إن كان ذلك تأثير الكحول أو كانت تلك هي حالها متى رغبت في مطارحة الغرام. أو لعلّ السبب أني رأيتُها على تلك الحال عندما كنتُ أشعر نحوها بحبٍّ أكبر. كُنّا أحدنا على مقربة من الآخر، بل أقرب من أي وقت مضى، فلم أدرِ ما إن كان ذلك تأثير الكحول أيضاً، أو لأني حسبتُها تحبّني أكثر مما سبق، أو لأني كنتُ أرغب في مطارحتها الغرام. أصررتُ على سؤالي: «أجيبي عن سؤالي، روساريو. هل وقعتِ في الحبّ يوماً؟».

ربما كانت ابتسامتها أجمل جواب عن سؤالي. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ أرغب في معرفة المزيد، ربما فتّشتُ كلماتها بحثاً عن المعجزة التي ترقّبتُها دوماً، بحثاً عن اسمي المُنتقَى من بين الكثيرين ممن ملكَتهم، وما زالت تملكهم حتى هذه اللحظة، اسمي المُختار من بين جميع الأسماء، اعترافاً بأعظم حُبٍّ نالته يوماً. وإن لم يكُن اسمي هناك، لأسباب جليّة، فعلى الأقل كنتُ أريد أن أعرف من هو الذي تمكّن من إثارة ذلك الشعور في نفسها، ذلك الشعور الذي يقتلني، وإن لم يكُن له في قلبها وجود، على ما يبدو.

لم تعطِني الإجابة التي كنتُ أريدها في تلك المرة أيضاً، فلم تجبني لا باسمي ولا باسم غيري. بل أجابتني بسؤال قاتل، شأن كل ما يمتُّ لروساريو بصلة، سؤال لم يقتلني، وإن أصابني بجرح غائر. لم يجرحني السؤال في حد ذاته، بل جُرِحتُ لأني كنتُ مخموراً، فاستجمعتُ جرأتي لأجيبها بصدق، وأنظر إلى عينَيها حين سألَتني: «وماذا عنك يا صديقي، هل وقعتَ في الحبّ يوماً؟».



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 15

حين عادت إلينا لآخر مرة، استغرقَت وقتاً أطول في الرجوع. مرّت قرابة أربعة أشهر تعبنا خلالها من الاتصال بها والسؤال عنها. طالت عليّ تلك المدة حتى ذهبت إلى الظنّ بأن روساريو قد رحلَت إلى الأبد، ربما أخذوها إلى بلد آخر، ولهذا لن نراها مرة أخرى. قلّما تحدّثتُ في تلك الفترة إلى إميليو، الذي عاود الاتصال بي بعد أن صبَّ عليّ جام غضبه بأيام قلائل، لا من أجل تلطيف الأجواء بيننا وحسب، بل للسؤال عنها أيضاً. بلغَت بي الحال أن صرت أفتّش عن صورتها في الجريدة كل يوم، في الصفحات نفسها حيث نُشِرَت صورة فيرني، وإن لم أجد سوى أخبار عن المئات من الشباب الذين عُثِر عليهم قتلى في ميديّين.

ثم قرّرتُ أن أعتبر غياب روساريو فرصة مواتية لانتزاعها من رأسي أخيراً. اتّخذتُ قراري حزيناً، ومع أني لم أنسَها، فلقد شعرتُ بأن الحياة صارت أطيب مذاقاً. بطبيعة الحال، لم يخلُ الأمر من الذكريات، ولا الأغنيات، ولا الأمكنة التي حملَتني على الشعور بأنها عادت مرة أخرى لتزيد حياتي تعقيداً. دار في خلدي أن الافتراق عن إميليو هو الآخر قد يساعدني على تحقيق مساعيّ، وإن حدّثني ظنّي بأن الفكرة ذاتها طافَت برأسه أيضاً، بالأخذ في الحسبان ابتعاده عني. ولكن مساعيّ الحميدة لم



t.me/qurssan

تدُم طويلاً (لأن كل قصة تشتمل على «ولكن»)، بل انتهَت في تلك الليلة، حين اتّصلَت بي روساريو فجراً، كما فعلَت في ليالٍ سابقة.

وإذا هي تنتزعني من النعاس وتجمّدني من الداخل بعبارتها المعهودة: «يا صديقي». سألتُها أين كانت، فأجابتني بأنها عادت إلى شقتها منذ وقت غير بعيد، فاتّصلَت بي أولاً قبل كل شيء. قالت: «سامحني على الاتصال في مثل هذه الساعة».

فأضأتُ الأنوار لأتحقّق من الساعة في المُنبّه. سألتُها أين كانت طوال الفترة الماضية، فقالت «في تلك الأنحاء»، إجابتها المألوفة دوماً. «كنتُ في تلك الأنحاء، أقضي على نصف العالَم»، هكذا خطر على بالي خلال الصمت الطويل الذي خيّم بعد قولها.

«وما الجديد؟». سألَت لمُجرّد السؤال، ولفتح شهيتي المعدومة إلى الكلام. لم أبتهج بعودتها إلى الظهور، ولا باتصالها، بالعكس تماماً، بل إني شعرتُ بالتكاسل والتعب من العودة إلى حبّها مرة أخرى.

قلتُ لها: «لقد تأخّر الوقت كثيراً، روساريو. الأفضل أن نتكلّم غداً».

- «عليّ أن أخبرك بأشياء مهمة جدّاً يا صديقي. أنت وإميليو. هل عاودتَ الحديث إليه؟».

وهكذا تحقّق الغرض من اتصالها، السؤال عن إميليو دوماً. لقد حفظنا القصة عن ظهر قلب، الروتين الذي يتّبعه ثلاثتنا لخداع أنفسنا. كذلك الشيء الذي يفتّش عنه الجميع لإقناع أنفسهم بأن كل الأمور سوف تتغيّر لمُجرّد أن اليوم ليس البارحة، ولإقناع أنفسهم بأن الأبله لن يعود أبله، والجاحدة سوف تحبّنا، والقاسي سوف يلين، وبأننا -نحن البشر- سوف نشفى من الحماقة لمُجرّد أن الزمن يمضي وكل شيء يبرأ من دون أن يترك ندبة.



t.me/qurssan

- «أتسمعني يا صديقي؟».

- «كلّا، لم أعرف عنه شيئاً. لا نتحدّث إلّا في ما ندر».

أصرّت روساريو: «أنا في حاجة إلى حضوركما. يجب عليّ أن أخبركما بأمر يهمّكما».

قلتُ لها وقد اجتاحتني رغبة جارفة في إنهاء المكالمة: «اتّصلي به إذاً، ولنرَ. أخبريني لاحقاً».

انتهى حديثنا عند هذا الحد. كانت تنوي إقناعي بتمهيد الطريق إلى إميليو من أجلها، غير أني تركتُها تتحمّل جام غضب إميليو في تلك المرة، لو كان يجرؤ على صبّه فوق رأسها. ليلتئذٍ لم يغمض لي جفن، لا بسبب الاضطراب الذي تركَته كلماتها في نفسي، وإنما بسبب الكدر الذي نشعر به متى عرفنا أنه لا شيء يتغيّر.

بعد أيام قلائل، كنتُ وإميليو مرة أخرى في شقتها، وإن لم نذهب عن طيب خاطر، ولم تبدُ علينا أمارات السرور، بل إننا ببساطة وضعنا تركيزنا في ذلك الشيء بالغ الأهمية الذي يجب على روساريو أن تخبرنا به. شعرنا بلهفتها إلى رؤيتنا، أو على الأقل البوح بما كتمَته في صدرها، بدَت متعبة، مُجهَدة، ومع أنها لم تبدُ بمظهر بدين، فقد لُوحِظَت زيادة وزنها، ذلك أنها في محاولة لخداعنا قد أخفَت لحمها داخل الثياب المعهودة، وإن كانت في حاجة إلى ثياب أوسع.

بدأت في الحديث بقولها: «شكراً لحضوركما يا فتى أنت وهو. أعرف أنكما تشعران بغضب شديد نحوي، ولكني إن طلبت منكما الحضور فهذا لأن أحداً لم يبقَ لي في هذا العالَم سواكما».

بدأت في الحديث واقفة على قدمَيْها، فبدا عليها أنها تجد صعوبة في ربط الكلمات، ثم اضطُرّت إلى الجلوس بعد العبارات الأولى، كما



t.me/qurssan

اضطُرّت إلى الجلوس حين رأت صورة فيرني في الجريدة، مع الفارق أنها الآن سعَت جاهدةً لكبح دموعها. وعلى الرغم من ذلك، تهدّج صوتها حين كشفَت عن مشاعرها، وحين قالت إننا الوحيدان اللذان لم يتبقَ لها سواهما (حقاً في هذه المرة). تابعَت حديثها: «أعرف أنكما لا توافقانني على الكثير من أفعالي، وأني كثيراً ما وعدتُكما بأن أتغيّر، وفي كل مرة أرجع إلى عادتي القديمة، هذا صحيح. ولكني أودّ لو فهمتما أن الذنب ليس ذنبي. كيف أقولها! إنها قوة هائلة، أكبر مني، ترغمني على الإتيان بأمور لا أريدها».

ما زلنا لم نفهم جيداً إلى أي شيء ترمي بقصتها. نظرتُ إلى إميليو من طرف عيني فرأيتُه مثلي، فاغراً فمه، واقعاً تحت إغواء عينَيها، وسحرهما، عينَيها اللتين تحرّكَتا في جميع الاتجاهات بحثاً عن أفكار تبرّر أفعالها.

- «أما الشيء الذي لا تعرفانه فهو مدى صعوبة حياتي. أعني، تعرفان بعضاً منها، ولكن قصتي بدأت قبل ذلك بوقت طويل. ولذا فأنا الآن عازمة على تغيير كل شيء، ويجب عليّ اتخاذ خطوة لمحو ذلك الماضي بأسره، وتلك الحياة العصيبة بأسرها، نهائياً. ولكن ما دمتُ أريد نسيان كل شيء، ينبغي لي العمل جاهدة والبحث عن مخرج نهائي، أتفهمان ما أعني؟».

تبادلتُ وإميليو نظرة أخرى: لم نفهم شيئاً، ولكننا بقينا صامتَيْن من دون اتفاق مسبق. لم نرغب في الكلام، ربما رغبنا في مهاجمتها لئلّا نشاركها أفكارها، كي تُضطَرّ إلى السعي لتنفيذ أغراضها وحيدة. بدأت روساريو تحتدّ: «اسمعا يا فتى أنت وهو، ما أعنيه أني لستُ على استعداد للاستمرار في العيش هكذا، ولكني في حاجة إلى الاعتماد عليكما، فما لي أحد سواكما، ما لي أحد على استعداد لمرافقتي في مشروعاتي. وأعتقد أنكما ترغبان في التغيير أيضاً، لأن الهدف من المقترح الذي سأعرضه عليكما الآن أن نودّع الفقر إلى غير عودة».



t.me/qurssan

تسمّرتُ وإميليو مكاننا، أحسسنا بغصّة وكأن كلاً منا قد ابتلع مسماراً، من هول الصدمة التي أصابتنا على وقع كلماتها الأخيرة. أما هي، فرأيناها تبتسم لأول مرة في ذلك المساء، فاتحةً عينَيها بشدة، ترقّباً لردّ فعل من جانبنا. الآن حان الوقت لكسر الصمت. قلتُ لها: «معذرة، روساريو، ولكن لا أنتِ ولا نحن فقراء، على حدّ علمي».

فنهضَت وراحت تذرع المكان جيئةً وذهاباً: «قلتُ لك يا صديقي، قلت لك إنهم قد أعاروني كل هذا، وربما سلبوني كل شيء في اليوم الأبعد عن البال، دعنا نرَ، هل تمتلك الكثير؟ وماذا عنك أنت أيضاً يا إميليو؟ معذرة، ولكن ليس فيكما من يمتلك ولا حتى مُؤخّرته، كل شيء ملك لأبويكما، السيارة، والثياب، لقد أعطوكما كل شيء جاهزاً، أما أنتما فلا تملكان حتى شقة حقيرة تعيشان فيها، أو تراني مخطئة؟».

سألها إميليو في تحدٍّ: «إذاً، فماذا تريدين منا؟».

أجابته باللهجة نفسها: «لو تركتَني أفرغ من كلامي دفعة واحدة، أوضحت لك الأمر».

بدأ اللقاء يحتدم. كان ثلاثتنا وقوفاً، وفي غاية الاضطراب. لم يكُن من العسير أن نتصوّر نوايا روساريو، علماً منا بالمدرسة التي تنتمي إليها. لم يرُقني الجدال على كل حال. أوضحَت لنا روساريو قائلةً: «الأمر في غاية السهولة. إنها صفقة مضمونة الربح، ولقد أجريتُ كل الاتصالات اللازمة، هنا وفي ميامي».

قاطعها إميليو سائلاً: «أين؟».

- «آه، إميليو، لا تكُن مُغفّلاً. الأمر يستلزم إجراء الاتصالات هنا وهناك، أو لعلّك تفكّر في إتمام الصفقة وحدك؟».

- «لا وحدي ولا مع غيري! ماذا تحسبين، روساريو؟».



t.me/qurssan

- «وأنت، من أين تحسبنا قد حصلنا على كل ما تعاطيتَ من الكوكايين والبازوكو؟! أتظنّه يتساقط من السماء؟».

للحظة خلتهما على وشك أن يتبادلا اللكمات. لم أهتدِ إلى طريقة لتخفيف حدّة الخلاف. ومن خلال تجربتي، عرفتُ أن ثمن التدخّل قد يكون فادحاً.

قال إميليو: «اسمعي، روساريو، لقد أخطأتِ في اختيار شركائك، تذكّري أننا من أولاد الناس المحترمين».

أجابته وهي تستشيط غضباً: «المحترمين! ها! كل ما في الأمر أنكما مُغفّلان».

قال لي إميليو: «هيّا بنا».

نظرتُ إلى روساريو ولكنها لم تنتبه، راحت تزفر خافضةً رأسها، عاقدةً ذراعَيْها، واتّكأت على الجدار. فتح إميليو الباب وخرج، أما أنا فوددتُ لو أقول شيئاً، غير أني لم أدرِ ما هو، ولذا قرّرتُ أن أقول: «روساريو، لا أدري ماذا أقول»، ولكنها لم تترك لي الفرصة، فقبل أن أتمكّن من فتح شفتَيّ قالت: «هيا يا صديقي، اذهب أنت أيضاً».

فرفعتُ كتفَيّ بلفتةٍ حمقاء، وخرجتُ شاخصاً بعينَيّ إلى الأرض. كان إميليو على مقربة من باب المصعد، وراح يضغط على زر المصعد بلجاجة حتى ينزل، ولكن قبل أن ينفتح باب المصعد رأينا روساريو تطلّ برأسها من خلف باب شقتها وتصيح فينا: «هكذا أنتم! تحسبون أنفسكم من عائلات أرقى، ولو دقّقنا النظر اكتشفنا أنكم معدمون وأولاد عاهرات!».

صفقَت الباب خلفها، أما نحن فدخلنا إلى المصعد، وقد اشتدّ سخطنا إلى حدٍّ جعلنا لا ندرك أننا بدلاً من النزول مضينا صعوداً.



t.me/qurssan

انتظرتُ بضعة أيام قبل الاتصال بها مع أني ما زلتُ لا أعرف ماذا أقول. كنتُ أودّ تهدئة النفوس قليلاً، والتحقّق من أغراض روساريو أيضاً، ثم محاولة إقناعها بالعدول عن ارتكاب عمل جنوني، في حال صدقَت ظنوني. كانت ردود فعلها عصية على التوقّع حتى إني لم أندهش عندما وجدتُها في مزاج طيّب، على الرغم من توقعاتي بلقاء يشبه آخر لقاء لنا. قالت إنها تُعِدّ صحناً شهياً، وتدعوني كي أشاركها الطعام.

- «أيّ مصادفة يا صديقي! لقد أعددتُه وأنا أفكّر فيك».

لم أصدّق تلك المصادفة كل التصديق. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ برفقتها بعد وقت قصير، أتناول شيئاً لا اسم له، ولا طعم، وإن كانت سعادتي جارفة حين رأيتُها وهي تتلذّذ بتجربتها. ثم جلسنا قرب النافذة لمشاهدة المدينة ليلاً، حيث الأنوار الوامضة التي كانت تروق لروساريو كثيراً. انساب النسيم العليل والنبيذ والموسيقا، فشعرنا برغبة في تخليد اللحظة. وإذا تعبيرات وجهها تتبدّل فجأة، كما لو أن كل هذه الأشياء التي فتنَتني بدأت تؤلمها، فتراءى لي أن عينَيها اغرورقتا بالدموع، ولكن ربما كان وميض أنوار المدينة قد انعكس على عينَيها.

- «ماذا جرى لكِ، روساريو؟».

رشفَت من كأس النبيذ، ثم مسحَت عينَيها المغرورقتَين بالدموع، مُؤكّدة، بذلك، ظنوني.

- «كل شيء يا صديقي».

نظرَت إلى المدينة مُجدّداً، ثم عادت برأسها إلى الخلف قليلاً. ربما عادت برأسها ليبرّد النسيم عنقها. قالت: «جرى لي كل شيء. العزلة، موت فيرني، السفر...».

أحسستُ بأصداء قوية تتردّد في رأسي. بلغَتني الكلمة كالدوي المكتوم



t.me/qurssan

الناجم عن صدمة شديدة، ثم تكرّرَت بقوة: «السفر، السفر، السفر». تمنّيت لو كانت تقصد شيئاً آخر، سفراً آخر، فلم أجنِ من خداع نفسي شيئاً، وأخيراً أدركتُ مقصدها، غير أني لم أرغب في الحديث عن ذلك.

سألتُها: «ماذا كانَ من أمر نوربي؟».

فصوّبَت قولي في غير حماس: «فيرني. كان ذلك مُروّعاً، ليس لك أن تتخيّل في أي حال تركوه، لم يكُن في جسده مُتّسع لرصاصة أخرى، لا أدري السبب الذي جعلهم يطلقون عليه كل هذا الرصاص، فواحدة كانت تكفي. قتلوه مدفوعين بالضغائن».

انسلّت من عينَيْها دمعتان أخريان، حاولَت أن تواريهما برشفة مُطوّلة من النبيذ. سال أنفها، فمسحَته بمنديل. ثم تابعت حديثها: «فيرني المسكين، لم يتقن الرماية يوماً. ربما قتلوه لهذا السبب. كان ساذجاً حين وضع ثلاث دلّايات حول معصمه لئلّا يخيب تصويبه ولم يضع دلّاية واحدة على قلبه لتحميه ولا حول كاحله لتعينه على الهرب. أيّ مُغفّل، فيرني!».

- «ولكن، هل تمكّنتم من دفنه؟».

- «طبعاً. بالقرب من چونيفي».

أسدلَت النسائم خصلات شعرها على وجهها، فأزاحتها روساريو خلف أذنَيْها بتلك اللفتة التي كثيراً ما فُتِنتُ بها، ثم نظرَت إليّ باسمةً من دون سبب، أو لسبب لم أنتبه إليه. قلتُ لها: «لا تتردّدي في الاتصال بي متى شعرتِ بالوحدة».

أعتقد أني بذلك أعطيتُها سبباً للابتسام، وقد كان، فابتسمَت مُجدّداً. ضغطَت على فخذي بيدها، كعهدها كلما أرادت أن تُظهر المودّة، ثم راحت تتلمّس طريقها بحثاً عن يدي، فلم تعبأ حين مسّت الكتلة التي بين فخذَيّ وهي ماضية في بحثها. وأخيراً عثرَت على يدي، مفتوحة، مُستعِدّة لكي تمسك بها. ثم قالت: «سأفتقدك يا صديقي. سأفتقدك كثيراً».



t.me/qurssan

في تلك الليلة، لم يغمض لي جفن وأنا أفكّر في غيابها الذي بدا نهائياً. اجتاحني شعور بالغمّ ظلَّ يتزايد ممزوجاً بالأرق كلما تصوّرتُ الحياة من دون روساريو، ودار في خلدي أن المضيّ قدماً من دونها يكاد يكون ضرباً من المحال، فتشبّثتُ بتلك الفكرة والذكريات تلاحقني. وفيما كنت أحتضن الوسادة، رحتُ أتذوّق المشاعر التي كانت توقظها في نفسي مرة أخرى، واحداً واحداً، ومعها عاد رفيف الفراشات إلى جوفي، والبرد إلى صدري، والوهن إلى ساقَيّ، والرعشة إلى يدَيّ، والجزع، والخواء، والرغبة في البكاء، والحاجة إلى لفظ ما في معدتي، وسائر الأعراض التي تداهم العاشقين غدراً. وإذا كل دقيقة في تلك الليلة تغدو حلقةً في القيد الذي شُدّ به وثاقي إلى روساريو، سلمةً أخرى في الدّرَج المُؤدّي بي إلى القاع... تلك الدقائق التي بدلاً من الإعلان عن بزوغ الفجر زجّت بي في نفق معتم، كذلك النفق الذي كثيراً ما رجوتُ روساريو أن تخرج منه. لم يسعني الخلود إلى النوم إلّا قليلاً، حين تسلّلَت أشعة الشمس بقوة من خلال الستائر، وغلبَتني فكرة الانسياق وراء روساريو في مسيرتها المجنونة.

لم تختلف الأيام التالية عن تلك الليلة، بل يسعني القول إنها كانت أسوأ منها حالاً، إذ حفلَت بالشكوك والمخاوف المُتّصلة، واليقين بعجزي المحتوم عن المضيّ قدماً من دونها. بينما رحتُ أتغذّى على أمل يليق بآخر المُصطَفّين في الطابور، ذلك الذي يتعزّى بالنزر اليسير الذي يُعطَى إياه، بالبقايا، بما تخلّف عن الآخرين، أو (كما هو حالي مع روساريو) يخدع نفسه لأنها الآن وحيدة وما عاد لها في ظاهر الأمر سواه. ربما كان ذلك أقوى سبب دفعني إلى فكرة الانسياق وراءها: المقابل الذي سوف أتلقّاه مكافأةً لي على وفائي غير المشروط. أما البقية فكانت أجزاء من



t.me/qurssan

الفيلم الذي صنعتُه من نسج الخيال، روساريو وحيدة، من دون إميليو، لأني عزمتُ على ألّا أخبره بشيء من مشروعاتي، من دون فيرني، لأنه قد لقي حتفه، من دون أشد الأشداء، لأن أولئك تحديداً هم الذين كانت تسعى إلى الافتراق عنهم: وحدها برفقتي، في بلد غير البلد، مع الأخذ في الحسبان ليلتنا التي أمضيناها معاً، فماذا أطلب من الحياة فوق ذلك؟

ولكن لأن الحياة لا تهبنا ما نطلب منها إلّا في ما ندر، فهي لم تُرِد أن تخلف عادتها تلك المرة أيضاً. اتّصلتُ بروساريو عازماً على قبول عرضها، ولكن مع إدخال بعض التعديلات: فأنا ذاهب معها، ولكني لن أشارك في صفقتها، سأكون مرافقاً لها فحسب، وأعيش معها حيثما شاءت، أما تلك الصفقة، فكلّا، لا أستطيع. وعلى الرغم من ذلك، فلقد اتّخذ شعوري بالقلق منعطفاً حاداً، إذ اتّصلتُ بها مرات كثيرة فلم أجدها، كان جهاز الردّ الآلي يجيبني، أما هي فلم تردّ على مكالماتي. في المرات السابقة كنتُ أعرف دوافع اختفائها، ما جعل شعوري باليأس في تلك المرة أشدّ جسامة، لعدم وجود سبب معروف قد يدفع روساريو إلى الغياب هكذا. وفجأةً تذكّرتُ قولها «سأفتقدك كثيراً يا صديقي»، فخطر لي أنه ربما كان وداعاً، هادئاً، من دون صخب، «سأفتقدك كثيراً». كان وداعاً واضحاً للغاية، الأمر الذي لم أدركه لحظتئذٍ. تحدّثتُ إلى إميليو، لعلّه يقطع الشك باليقين، ولكني كنتُ أعرف عنها أكثر مما يعرف هو. أضف إلى ذلك أن زيارته في بيته لم تكُن بالفكرة الحسنة. قال لي: «دعني أطلب منك معروفاً، لا تحدّثني عنها مرة أخرى».

فقلت له: «هدّئ من نفسك، فلن يعود في وسعنا ذلك: لقد رحلَت روساريو إلى غير عودة».

- «لو رحلَت، فذلك أفضل جدّاً».



t.me/qurssan

لم أفهم كيف له الابتهاج برحيلها، لا بدّ أنه لم يحبّها قط، أو على الأقل لم يحبّها بقدر ما فعلتُ، أنا الذي لم أدرِ ماذا أعمل أو إلى أين أتوجّه أو كيف أبحث عنها. شرعتُ أهيم في تلك الأنحاء بلا وجهة، مُفتّشاً عن الأمكنة التي يُحتمل أن أجد فيها روساريو. تذكّرتُ ذلك البناء الذي أرسلاني إليه لطلب النقود، والشوارع شديدة الانحدار في ذلك الحيّ الذي كان حيّها، وبضعة أمكنة أخرى كانت روساريو تتردّد عليها بشيء من الانتظام، في زيارات يلفّها الغموض. ثم استقرّرتُ على الذهاب إلى البناء حيث تقع شقتها، لعلّها أخبرَت حارس العقار بشيء. فدائماً يعرف حرّاس العقارات شيئاً. قال لي الرجل: «طبعاً يا صديقي. لقد وصلَت الآنسة من فورها. تفضّل بالصعود».

صعدتُ بأسرع ما أملك، على الدّرَج، إذ بلغتُ من نفاد الصبر حدّاً لم يسمح لي بانتظار المصعد. رحتُ أقرع الجرس والباب في آن واحد، وبعد «من الطارق؟»، «أنا»، فتحَت الباب، فارتميتُ في حضنها، كما كُنّا سنرتمي في أحضان الموتى لو قُدّرَت لهم العودة إلى الحياة.

قلتُ لها: «أنا ذاهب معك! سأرافقك».

فكانت هي التي عانقتني بقوة، وإن تراءى لي أنها لم تفعل مدفوعة بالبهجة، أحسستُ بها ترتجف، ما يحدوني إلى الاعتقاد بأنها عانقتني مدفوعةً بالخوف. وحين أخذَت بيدَيّ كي تعبّر لي عن امتنانها، أحسستُ بهما أشدّ برودة من أي وقت مضى، تتفصّدان عرقاً، حتى لم يعُد الإمساك بهما يسيراً.

سألتُها: «أين كنتِ؟».

فأجابتني: «كنتُ أحضّر كل شيء. كما تعرف».

لا كنتُ أعرف ولا أردتُ أن أعرف. لم أخبرها بشروطي للسفر معها.



t.me/qurssan

لم أجرؤ، فقرّرتُ إرجاء المسألة إلى وقت لاحق، إذ لم يسعني إفساد ذلك اللقاء الذي كان يبدو لي ضرباً من المحال. ولكن حين وقع بصري على حقيبة مُعَدّة وجاهزة، تترقّب إلى جوار الباب، أدركتُ أن عرض متطلباتي ما عاد يحتمل التأجيل طويلاً، بطبيعة الحال.

سألتُها: «متى ترحلين؟».

فصوّبَت سؤالي: «تقصد "متى نرحل". سأخبرك بالموعد».

كانت اللحظات التالية مُحيّرة وغريبة جدّاً، حتى إن استحضارها بدقة ما زال يشقّ عليّ كثيراً. لا أذكر بأي ترتيب جرَت الأحداث ولا كم استغرقَت على وجه التحديد، ولكني أذكر أن الوقت كان ليلاً، ولم يكُن قد مرَّ الكثير على وصولي، أما ذلك الذي سمعناه بعد ذلك، وفق ما أعتقد، فكان دويّ الباب الذي انفتح دفعة واحدة، وإذا جنود مُسلّحون يجتاحون الشقة ويصوّبون أسلحتهم إلينا، وأحدهم يصيح مُطلِقاً أوامره. جرّوني إلى حجرة، وروساريو إلى حجرة أخرى. أُرغِمت على الانبطاح أرضاً، ووضع أحدهم قدمه على ظهري، وقرّبوا إلى أنفي بضع صور تظهر فيها أرقام ضخمة إعلاناً عن مكافأة. كانت صورهم هم، أشد الأشداء، سادة روساريو. أطلعوني على جميع الصور، وكل واحدة مصحوبة باستجواب، أين هم، وما العلاقة التي تجمعني بهم، ولماذا أتستّر عليهم، ومتى كانت آخر مرة رأيتُهم فيها، مع التشديد على كل سؤال بالقدم التي راحت تضغط على ظهري. أخذ الرجال يتحرّكون دخولاً وخروجاً، في حين لم يُسمَع شيء عدا همساتهم ودبيب خطاهم، أما روساريو فلم أسمع لها صوتاً، سألتُ عنها فلم أتلقَّ جواباً، ثم دخل آخر وكشف عن شيء لصاحب الصوت الأقوى، «انظر ماذا وجدنا»، رفعتُ عينَيّ، فرأيتُ مُسدّساً، مُسدّس روساريو، ثم أردف الآخر: «بلا أوراق»، وبعد برهة أخرى من الصمت قال



t.me/qurssan

صاحب الصوت الأقوى: «خذوهما»، ظننتُ أني سأراها عند ذاك، وأنهم سوف يأخذوننا معاً، فلم يصدق ظني، لا أدري ما إن كانوا قد أخذوها أولاً، فأنا لم أرَها حين اقتادوني خارج المكان ولا بعد ذلك، حين تدخّلَت أسرتي لحلّ مشكلتي، لم أرَها حين عاودتُ السؤال عنها، فقيل لي إن آخرين قد تدخّلوا لحلّ مشكلتها، لم أعُد لرؤيتها، لا في اليوم التالي ولا حين ذهبتُ أفتّش عنها في البناء حيث تقع شقتها، فأخبرني حارس العقار بأنها قد سافرت، لم أعُد لرؤيتها حتى الليلة الماضية، عندما حملتُها وجئتُ بها إلى هنا، بعد مضي ثلاثة أعوام، بعدما ألفتُ اختفاءها، بعد أن خبَت ذكراها، حتى اليوم، حتى هذه اللحظة التي يخرج فيها أحد الأطباء أخيراً، أعتقد أنه هو الذي استقبلها، أراه يتحدّث إلى المُمرّضة، يشير إليّ، يصوّب نحوي إصبعه وكأنها ماسورة مُسدّس باردة، يصوّب نحوي، يأتي، والقناع الواقي تحت ذقنه، ولحيته لم تُحلَق منذ الأمس، يسير سيراً بطيئاً، بخطوات خفيفة، ينظر إليّ فيما هو يقترب مني، عيناه حمراوان، مُتعَبتان، والبالطو الذي يرتديه مُلوّث بالدماء، إنه هو، الآن تأكّدت، إنه هو الذي استقبلني، ما عاد يشير إليّ، الآن تأكّدت، الآن أدركت. أسدّ أذنَيّ لئلّا أسمع ما هو على وشك أن يقوله. أغمض عينَيّ بإحكام لئلّا أرى الكلمات التي لا أودّ سماعها مرسومةً على شفتَيه.



t.me/qurssan

t.me/qurssan

# 16

«حتى الموت يليق بكِ، يا روساريو المقصّ»، أراها مُمدّدة إلى الأبد فلا يخطر على بالي شيء آخر. لم أقدر على رفع الملاءة، وإنما رفعها شخص آخر. ولو أنهم لم يخبروني بما جرى لخلتُها نائمة، فهكذا كانت تنام، بذلك المظهر الهادئ الذي تفتقر إليه في صحوها. «حتى الموت يليق بكِ»، ما كنتُ أذكرها جميلةً إلى هذا الحدّ، فلقد بدأ الزمن يطمسها من ذاكرتي، ربما أعربتُ للحياة عن امتناني على تلك اللحظة مستقبلاً، فلو لم أكُن هنا لحظتها لانمحى وجه روساريو من ذاكرتي. كنتُ أودّ لو قبّلتُها، واسترجعتُ مذاق قبلاتها، «قبلاتكِ لها مذاق الموت يا روساريو المقصّ»، كان إميليو قد حذّرني، فاستطعتُ التحقّق من ذلك بنفسي في وقت لاحق، وهكذا قلتُ لها حين قبّلتُها، حين بدأنا نتهجّم أحدنا على الآخر، لسبب لا أعلمه، بعد الغرام، وكأننا بذلك ندفع ثمن الخطيئة، أو ربما كانت تلك هي طريقتها في الحبّ، أو ربما كان هكذا هو الحبّ. كان يكفينا أن نلقي باللائمة على الشراب، وكُنّا في غنى عن توجيه أحدنا الإهانة إلى الآخر. لم يكُن أحدنا مذنباً، وإلّا فكلانا مذنب، هكذا تسير الأمور.

– «وماذا عنك يا صديقي، هل وقعتَ في الحبّ يوماً؟».

أذكر أنها طرحَت عليّ أسئلتها القليلة بلهجة طفولية، مزيج غريب من



t.me/qurssan

الطفولة والأنوثة، بلهجة الدلال التي إليها تلجأ النساء رغبةً في التودّد. فأجبتُها. كنتُ قريباً جدّاً من وجهها، إذ جلسنا ونحن نتبادل الأسئلة أحدنا على مقربة من الآخر، فلم أُضطَرّ إلى رفع صوتي حتى أجيبها بنعم، وبأني ما زلتُ واقعاً في الحبّ، سألَتني بصوت خافت: «ومن هي التي وقعتَ في حبّها؟»، فأجبتُها بصوت أكثر خفوتاً، مع أنها تعرف الإجابة: «أنتِ». فران صمتٌ طغَت عليه الموسيقا، وإذا حواسنا أكثر رهافة، استعداداً لتلك الأحاسيس التي طالما انتظرتها. فتحتُ عينَيّ، فلم أقوَ على النظر إليها، إذ كُنّا وجهاً لوجه، وقد استندتُ بجبيني على جبينها، وبيدي على فخذَيْها، بينما راحت تربّت على فخذَيّ هي الأخرى. تنشّقنا الأنفاس المُشبّعة بالخمر وأحسسنا بالهواء على شفاهنا، أحسسنا بوجنتَيْنا تتلامسان برقّة، وتضغط إحداهما على الأخرى رويداً رويداً، إلى أن تلاقت الشفاه، إلى أن تلمّسَت الشفاه طريقها، ثم تلاقت، فما عادت ترغب في الافتراق، بل إنها تلاصقَت بقوة، وانفرجَت، وبين عضّ الشفاه وجسّ اللسان انتقل إليّ مذاقها، مذاق الخمر والموت، «قبلاتكِ لها مذاق الموت»، تذكّرتُ، وإن كان لها كذلك مذاق الرغبة في المضي قدماً، مذاق الرغبة في ما جرى بيننا بعد ذلك، إذ تلاقت أيدينا وجسدانا وتلامسَت أسناننا، كيف أنسى وقد سرى إلى يدَيّ تيار كهربائي حين دسستُهما تحت قميصها، كانت يداي محمومتَيْن، بل كان كلانا محموماً، فهكذا هو الحب اليائس، مزّق كلٌّ منّا ثيابَ الآخر، وانتزعتُ قميصها بجذبة واحدة، ولمفاجأتي السارة لم أُضطَرّ إلى نزع المزيد من الثياب، ثم إنها انتزعَت قميصي بجذبة واحدة هي الأخرى، ومن دون أن تفترق شفاهنا حللتُ أزرار سروالها الجينز، في حين أمسكَت هي عن خدشي بأظفارها لتحلّ أزرار سروالي، وفي ثانية واحدة، بين عضٍّ وآهات ولمسات متلاحقة، بلغنا الحال المنشود.



t.me/qurssan

«يا صديقي...»، قالت وفمها لصق فمي.

«يا صغيرتي...»، قلتُ، ثم لم أقوَ على التفوّه بكلمة أخرى.

أما ذلك الذي كان حينها، فهو أجمل أسراري وأشدّها ألماً. بل إن ذلك السرّ، الآن وقد فارقَت روساريو الحياة، سيغدو أكثر فأكثر خفاءً، وحميميةً، وألماً، أكثر كثيراً من أي وقت مضى، وإلى الأبد. سأعود إليه كل يوم حتى يظلّ نضراً إلى الأبد، كما كان لحظة وقوعه، ولذا أودّ لو قبّلتها الآن، لأستحضر ذكرى ثغرها مرة أخرى، وأغتنم قبلاتها التي لن يتغيّر مذاقها أبداً. أودّ لو قبّلتها الآن، موقناً أنها لن تلقي على عاتقي بحمل ذنوبها.

«إميليو أضخم منك»، قالت في وقت لاحق، عندما بدأ يزول أثر الخمر ولم يعُد في الإمكان التراجع عما جرى. تلاشَت الموسيقا والأضواء، إلّا ما انساب منها عَبْر النافذة. كنتُ عارياً إلى جوارها، في حين سترَت هي بعضاً من جسدها بملاءة. لزمَت الصمت، في انتظار ردّ فعل من جانبي. ولكن لأني لم أدرك ذلك التحوّل غير المُتوقّع إلى الكراهية بعد حبٍّ، فقد استغرقتُ طويلاً قبل أن أتمكّن من الردّ. وقبل أن يغلبني الألم، فكّرتُ أول ما فكّرتُ في هوس النساء بعقد المقارنة بين كل الأشياء. وكسيراً، رحتُ أفكّر في بؤس حياتي إذا عشت على ذكرى ليلة وحيدة، ذلك أني في تلك اللحظة لم يساورني أدنى شك في أن ما بيننا لن يزيد على ذلك، إذ لم يسمح لي ردّ فعل روساريو بالتفكير في المزيد. وعلى الرغم من ذلك، لستُ أدري كيف استجمعتُ القوى اللازمة حتى أرميها بسهمي، ولا أبقى على تلك الحال، كما أرادت هي أن تراني.

– «قد لا تكون مسألة حجم، ولكنكِ تحسّين بإثارة أكبر معي في الفراش».



t.me/qurssan

وبنظرتها أجهزَت عليّ. سحبَت الغطاء حتى عنقها، وأولَتني ظهرها. كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تنبلج. اقتربتُ منها أكثر قليلاً. لم تكُن المسافة بيننا بعيدة جدّاً، إذ كُنّا على فراش واحد في خاتمة المطاف، آلمني التسليم بأن تكون تلك هي المرة الوحيدة، ولذا جازفتُ بإظهار ما صارحتُها به منذ دقائق، مرة أخرى. بأصابعي رحتُ أفتّش عن كتفها، وأزحتُ الملاءة قليلاً حتى أكشف عن جزء من بشرتها، غير أنها انكمشَت على نفسها بحدة، وردّتني إلى ركني مرة أخرى من دون أن تنظر إليّ. قالت: «أنطونيو، الأفضل أن نخلد إلى النوم».

غطّيتُ وجهي بالوسادة وأجهشتُ باكياً، رحتُ أضغط على الوسادة بشدة لئلّا يصلني الهواء، أو ينفلت مني النحيب، حتى أموت كما أردتُ في تلك اللحظة، وأنا معها، بعد أن لمست السماء، حتى أموت عشقاً، تلك الميتة التي ما عاد يلقاها أحد، موقناً من عجزي عن البقاء على قيد الحياة وأنا أتجرّع تلك المهانة. ثم أرخيتُ الوسادة. أردتُها أن تعرف ماذا فعلَت، وماذا صنعَت بي، فتعمّدتُ إطلاق العنان لدموعي، وإن لم أُضطَرّ إلى افتعال البكاء، فها هي ذي الدموع التي ظلّت تجري طويلاً بعد ذلك، لم يهمّني أن تحسّ بنحيبي، فأنا لم يعُد لديّ ما أخسره. أما هي، فلا نظرَت إليّ، ولا التفتَت، ولا تفوّهَت بكلمة واحدة. أعرف أنها كانت مستيقظة، فهي لم تبلغ من الصفاقة حدّاً يسمح لها بالنوم حينذاك، ولا بدّ أن شيئاً قد تحرّك في نفسها هي الأخرى، زد على ذلك أنها انتفضَت حين قلتُ لها بصوت مسموع، وبكلمات مدروسة بعناية: «إن المقصّ هو ما بين فخذَيْك، يا روساريو المقصّ».

«وهذا كل شيء، روساريو»، ما زلتُ أتحدّث إليها في صمت، كعهدي دائماً، «ها قد وصلنا إلى نهاية كل شيء»، أموتُ لهفةً إلى تقبيلها، «قلتُ لكِ إني سوف أحبّكِ أبداً»، أموتُ لهفةً إلى الموت معها، «ولسوف أحبّك



t.me/qurssan

أكثر من أي وقت مضى في كل ما يُذكّرني بكِ، في موسيقاك، في حيّك، في كل كلمة نابية أسمعها، بل وفي كل رصاصة مُدوّية قاتلة»، آخذُ بيدها، ما زالت دافئة، أشدّ عليها في انتظار المعجزة، أعجوبة عينَيْها السوداوَيْن وهما تنظران إليّ، أو الكلمات الخارجة من بين شفتَيْها وهي تقول «يا صديقي، يا صديقي العزيز». ولكن، ما دامت المعجزة لم تتحقّق حين سعيتُ إلى الفوز بحبّها، دع عنك أن تتحقّق الآن، بعد فوات الأوان على إصلاح ما تعذّر إصلاحه. ما زالت محتفظة بدلّالياتها الثلاث، تلك التي لم تنفعها بشيء، «ها قد أهدرتِ حيواتك السبع يا روساريو المقصّ».

كلما قضى أحدهم نحبه تساءل المرء: أين هو الرّب؟ وأنا لا أدري ما العمل بكلّ الأسئلة التي ستواجهني من الآن فصاعداً، ولا ما العمل بهذا الحبّ الذي لم يُجدِني نفعاً. ولا أدري ما العمل بجثمانكِ، روساريو.

«آسف، ولكننا في حاجة إلى هذه الغرفة»، يقول أحدهم في برود.

صار لزاماً عليّ أن أتركها، وألقي عليها نظرة أخيرة، ثم أتركها، ها أنا برفقتها للمرة الأخيرة، آخذُ بيدها للمرة الأخيرة، الأخيرة، ذلك ما يؤلمني. لم أودّ الرحيل من دون تقبيلها، للمرة الأخيرة، إنها آخر قبلة لآخر المُصطَفّين في الطابور. ولكن ما عاد ذلك ممكناً، فات الأوان، كما جرت العادة في كل مرة، ها هم يأخذونها من عالَمها الأخير، يدفعونها على السرير النقّال، وهي ما زالت رائعة الجمال، «وهذا كل شيء، يا روساريو المقصّ».



t.me/qurssan

t.me/qurssan

### خورخي فرانكو:

وُلِد خورخي فرانكو في مدينة ميديِّين عام 1962. والتحق بمعهد لندن للفيلم، كما درس الأدب في مدينة بوغوتاه، غير أنه لم ينتهِ من دراسته وتفرَّغ للكتابة. حصل على جائزة القصة عن متتالية بعنوان «حب ملعون» (1996)، ثم فازت روايته الأولى «ليلة عصيبة» بجائزة الرواية (1997)، كما حصلت روايته «عالم خارجي» على جائزة ألفاغوارا (2014)، وهي واحدة من أرفع الجوائز الأدبية باللغة الإسبانية. تُرجِمَت أعماله إلى العديد من اللغات وقوبلَت بحفاوة القرّاء والأدباء معاً. وقد قال عنه «غابرييل غارسيا ماركيز»: «إن خورخي فرانكو واحدٌ من الكتّاب الكولومبيّين الذين أود أن أمرّر لهم الشعلة».

### مارك جمال:

مترجم مصري، عمل مترجماً لدى سفارة البرازيل بالقاهرة لسنوات، قبل أن يتفرَّغ لترجمة الأعمال الأدبية عن الإسبانية والبرتغالية. من ترجماته: «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيا ماركيز، و«خلية النحل» لكاميلو خوسيه ثيلا، و«النسيان» لإكتور آباد فاسيولينسي، و«بريد الذكريات» لإيمَّا رييس، و«اعترافات شرسة» لميا كوتو، و«مُذكِّرات براس كوباس» لماشادو دي أسيس.



t.me/qurssan

"إن خورخي فرانكو واحدٌ من الكتّاب الكولومبيّين الذين أودّ أن أمرّر لهم الشعلة".

غابرييل غارسيا ماركيز

"تلقّت روساريو رصاصةً بينما هي تتلقّى قبلةً"، هكذا يستهلّ خورخي فرانكو روايته، وفي تلك اللحظات التي تقضيها روساريو معلّقة بين الحبّ والموت، يحكي لنا الراوي قصة عشقٍ غريب وغامض عاشه من طرف واحد معها، مسترجعاً بنقلاتٍ لافتةٍ ماضيَ "روسازيو"، أو بالأحرى ما استطاع معرفته من ماضيها، وهي التي نشأت في مدينة "ميديّين" حيث السلاح والجريمة والفقر، واتخذت من "المقصّ" أداةً لتنفيذ كلّ جرائمها، حتى غدا لصيقاً باسمها.

بومضاتٍ سريعة ومكثفة يرسم الكاتب ملامح شخصيةٍ عصيّة على التوقّع، غامضة، تقتل ضحاياها بدمٍ بارد بينما تطبع على شفاههم قبلة الموت. وهو إذ يفعل ذلك، فإنه لا يكشف كل شيء، بل يستفز مخيّلة القارئ داعياً إياه للمشاركة في إكمال اللوحة.

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

t.me/qurssan